WRQ-00212

جيمس موريس

سلطان في عمان

قصة عمان والبريمي كما يراها كاتب انكليزي

دار الكاتب العربي

سلطان في عمان

جيمس موريس

سلطان في عمان

قصة عمان والبريمي كما يرويها كاتب انكليزي

دار الكاتب العربي

- ١ -

« مسقط وعمان – السيادة الشرعية – النفط والانكليز – البريمي – فهود – تحيات » .

في صباح يوم من أيام العرب الجميلة ، حوالي منتصف شهر كانون الاول سنة ١٩٥٥ ، دخلت قصر سلطان مسقط وعمان الذي يقع على شاطىء المحيط الهندي في « ظفار » ومررت عبر البوابة الكبيرة للساحة الخارجية ، فانحنى لي العبيد احتراماً ، ومنها نفذت الى البوابة الداخلية ، حيث رأيت مياه البحر تنعكس على الجدران ، ثم وصلت الى قاعة القصر ذات الطلاء الرائع ، والتي اصطف حول جدرانها عدد من الجنود يرتدون الجلابيب ، ولكل منهم لحية كثة ، وبيده بندقية ، وما ان وصلت الى هناك ، حتى برز لي شخص يرتدي عباءة مذهبة ويعتمر عمامة ، وكان ضئيل الجسم ، يتدلى سيف ضخم من وسطه ، وقد لاحظت لأول وهلة ، انه يتمتع بشخصية تتميز بالصراحة .

وقال هذا الشخص الذي لم يكن سوى صاحب السمو السلطان سعيد

ابن تيمور : « صباح الخير يا مستر موريسون » إنني لأسائل نفسي ، إلى أي مدى أنت مطلع على خارطة جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية ؟ »

والحقيقة إنني لم اكن مطلعاً على خارطة المنطقة على الاطلاق ، وذلك لأن تلك المنطقة من شبه الجزيرة العربية ظلت أقل المناطق العربية معرفة بالنسبة للكثيرين ، حتى من العرب انفسهم . وكل ما كنت اعرفه عنها لا يعدو معلومات عامة تتعلق بموقعها الجغرافي ، وقد تلقيت تلك المعلومات من الاطلس ، الذي يظهر المنطقة على شكل مثلث بني اللون ، يستشف منه أن المنطقة صحراوية ، يحدّها خليج عمان من جهة ، وبحر العرب من جهة ثانية ، وتخترقها في الوسط سلسلة من الجبال ، تحيط بها صحارى هائلة ، وقد حددت مواقعها من قبل شخص ، من المحقق انه ليس متأكداً مما يورده من حقائق فيما يتعلق بكل من مسقط وعمان . اما الذي رسم تلك الخارطة ، فلم يكن متحققاً من المكان الذي تبدأ عنده حدوده مسقط وتنتهي حدود عمان ، وليس هذا بالامر الغريب ، لانه ما من أحد غيره يستطيع أن يدّعي بأنه متأكد من ذلك .

والسلطان الحالي يتحدر من أسرة حكمت ذات مرة « زنجبار » ، وهو يعتقد بأنه الحاكم الشرعي لتلك المنطقة التي تشبه المثلث . ويمكن القول بأن « ظفار » وهو الاقليم الساحلي الجنوبي تابع لسلطانه ، وكذلك الحال بالنسبة إلى مسقط التي تقع على شاطىء الخليج ، ذلك الاقليم المأهول بالسكان ، والذي يمتد حول رأس شبه الجزيرة التي تربط بين الطرفين . اما البلاد الداخلية ، والتي تدعى « عُمان » ، فأمر يختلف كثيراً . وعمان بلاد جبلية وعرة ، تعزلها صحارى ، وسلاسل جبال شاهقة ، تقطنها قبائل عربية لا تكف عن النزاع ، إحداها مع الاخرى ، ولكنها اتحدت الآن لتقاتل

عدواً مشتركاً ، بعد ان اقسمت بين الولاء لزعمائها الذين يشكلون فيما بينهم اتحاداً تاريخياً ، وهذه القبائل معروفة ببأسها ، وبكون افرادها من المحاربين الاشداء . ومعظم افراد هذه القبائل ينتمون إلى فرقة إسلامية تدعى « إباضية » وهي طائفة انقرضت في كافة انحاء شبه الجزيرة العربية باستثناء عمان . فهل يمكن القول : بأن السلطان الذي لم يُخلق في المنطقة ، والرجل الارتوقراطي الذي تثقف في الهند ، هو الحاكم المطلق الشرعي لهؤلاء الناس الاشداء ؟

إن الحكومة البريطانية التي تحمي السلطنة ونفوذ السلطان عليها ، وتدير شؤونها الخارجية الى حد بعيد ، وبتعبير آخر ، إن بريطانيا التي ما تزال القوة الرئيسية في جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية ، تعتقد بأنه الحاكم الشرعي ، ولذا اعترفت به في المعاهدات التي عقدتها معه ، على انه الحاكم المطلق لكل من مسقط وعمان . اما الآراء الاخرى فيما يتعلق بهذا الموضوع ، فتختلف . فالحدود بين المملكة العربية السعودية ، التي تسيطر على معظم شبه الجزيرة العربية ، وبين مختلف الولايات الصغيرة المنتشرة على الخليج العربي لم تحدد تماماً حتى الآن . وهناك من يعتقد بأن الملك سعود عاهل العربية السعودية ، هو دون غيره ، الحاكم الشرعي للقبائل العربية في عمان . وفضلاً عن ذلك فان فرقة « الاباضية » في عمان كانت قد انتخبت لها منذ قرون عدة ، إماماً ، وكان في الاصل زعيماً روحياً ، ولكنه استطاع كذلك في السنوات التي تلت ان يكتسب سلطاناً سياسياً ، وهذا ما يفسر إصرار الامام غالب بن علي ، يسنده بذلك اخوه « طالب » على أن يعتبر عمان كولاية مستقلة تمام الاستقلال ، حتى انه أصدر جوازات سفر خاصة ، وتقدم بطلب الانتساب لعضوية الجامعة العربية ، وقد دعمه في طلبه هذا

السعوديون الذين قدموا له المال والسلاح ، وطبعوا له جوازات السفر الخاصة ، كما نال تأييد الجمهورية العربية المتحدة التي تعتبر اقوى دولة في الشرق الاوسط ، والتي آلى حكامها على انفسهم ان يستأصلوا النفوذ الغربي من العالم العربي . واستناداً الى هذا المبدأ فانهم يفضلون اماماً جريئاً ، على سلطان هو في الواقع دمية بيد الانكليز . ففي سنة ١٩١٣ ، ثارت عدة قبائل من تلك التي تقطن المناطق الداخلية على السلطان ونفوذه ، وحملت السلاح ضده ونجحت .

وقد نصّت الاتفاقية التي عقدت فيما بعد ، على اعتراف السلطان بأن المنطقة المعروفة باسم « سيب » ، حيز جغرافي لا يحق له التدخل في شؤونه الداخلية فهل يمكن ان يظلّ الحاكم المطلق بعد هذا الحد من صلاحياته ؟

لقد اقترح بعض المراقبين البريطانيين آنذاك إنشاء ولايتين منفصلتين احداهما عن الاخرى ، فوافق الامام على ذلك .

لكن بعد مرور أربعين عاماً على تلك الاتفاقية كان من الممكن ألا يحفل البريطانيون للأمر لولا اكتشاف البترول ، غير أن البحث عن آبار نفط جديدة في ذلك الجزء من شبه الجزيرة العربية ، أحيا موضوع مشاكل الحدود ، والادعاءات المتعلقة به . ففي أعالي الخليج العربي ، تمّ تحديد الحدود الفاصلة بين امتيازات التنقيب عن البترول ، وجرى الاعتراف بذلك التحديد بصورة عامة . بيد أن الحدود غير الواضحة بين المملكة العربية السعودية وعمان ، وهي الحدود التي اثارت كثيراً من المنازعات الدبلوماسية اصبحت حدوداً لمعركة اقتصادية .

وكانت ثمة شركة اميركية تعمل منذ سنوات في المملكة العربية السعودية ، واستطاعت ان تجلب لها الثراء الطائل ، ومكنتها من تسنم مركز سياسي وطيد ، فاذا امكن ضم عمان بصورة شرعية إلى المملكة العربية السعودية فان النفط الموجود في عمان يمكن استغلاله من قبل الأميركيين . وكان السلطان ، على كل حال ، قد منح شركة بريطانية امتياز التنقيب عن البترول في كافة انحاء مسقط وعمان ، وكان ذلك قبيل توقيع الاتفاقية سالفة الذكر ، لكن الامام عارض في تصرف السلطان هذا ، وأيده في ذلك السعوديون والمصريون والكثير من محامي شركات النفط الاميركية . بيد أن الحكومة البريطانية كانت تدعم السلطان بقوة . والواقع أن مستقبل حقول النفط في منطقة الخليج العربي قد يُقرر مصير بريطانيا العظمى ، وكان القسم الشمالي من الخليج قد أصبح تحت سيطرة المنطقة الاسترلينية ، وكان من الامور الهامة ان يفضّ أي نزاع حول النفط بوساطة شركات النفط التي تتعامل بالجنيه الاسترليني .

وقد كتبت جريدة « نيويورك تايمس » مقالاً في ذلك الوقت قالت فيه : إن من يسيطر على المصادر الجديدة للنفط قد يسيطر على المصادر الرئيسية للطاقة في العالم كله ، الى ان يصبح بالمستطاع استخدام الطاقة الذرية . ولكي تتوصل بريطانيا إلى هذه المصادر لن تتورع عن إغضاب اميركا ، فدعم « الوايت هول » السلطان ، وكذلك فعل رجال النفط البريطانيون بكل إمكاناتهم .

والمدخل الاكثر اهمية إلى تلك المناطق كان يتمثل في مجموعة من الواحات تدعى « البريمي » وتقع بين المملكة العربية السعودية ومشيخة « ابي ظبي » — وهي مرتبطة مع بريطانيا بموجب معاهدة — وبين سلطنة مسقط ، وبين

عمان . أما السيادة على هذه الواحات فلم تكن محددة بشكل واضح ، فبريطانيا تدعي السيادة عليها ، نيابة عن السلطان والامام اللذين يعتقد كل منهما بأنه حاكم على شطر منها ، كما ان السعوديين يطالبون بها .

ونظراً لكون « البريمي » محاطة بعدد من بساتين النخيل وعدد من القرى ، فقد اصبحت مركزاً للمواصلات وللنشاط السياسي معاً ، وكان من الواضح ان القوة التي تهيمن على « البريمي » ستقطع شوطاً بعيداً في مضمار السيطرة على ذلك الجزء من الحدود بأكمله ، وعن طريق البريمي ، تمر الاسلحة والاموال الذهبية ، كما ان السعوديين بذلوا كل ما في وسعهم لاكتساب ود المسؤولين الموجودين هناك ، وقد ذكرت بعض المصادر البريطانية أن رجلاً قد رشي بمبلغ عشرين جنيهاً استرلينياً ، مقابل إعلانه البريمي تابعة للملك سعود ، كما أن كميات اكبر من الاموال قد وزعت على القبائل المحلية . وفي سنة ١٩٥٢ بعثت الحكومة السعودية قوة من جنودها ، يستخدمون سيارات زودتهم بها شركة النفط الاميركية ، إلى البريمي واحتلوا قسماً منها . وقد حالت الحكومة البريطانية دون السلطان الذي تميز غضباً من اقدام السعوديين على احتلال شطر من الواحة ، ودون الهجوم المعاكس لاسترداد ذلك القسم ، ذلك لان بريطانية لم تكن تريد آنذاك ان تعرض العلاقات الانكلو – اميركية إلى الخطر ، ولكن مساعي الوساطة باءت بالفشل ، وفي سنة ١٩٥٥ قام البريطانيون بالذات باقصاء السعوديين عن الواحة ، ولما وصلت الى جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية وجدت قوات عربية تحت قيادة بريطانية ، تحتل البريمي احتلالاً كاملاً ، وتبسط سيادتها عليها بشكل لا يدع مجالاً للشك في ان الواحة اصبحت خاضعة للسلطان وللامام .

وكان العالم يراقب تطور الاحداث والمساعي الدبلوماسية التي رافقتها ، وكان الاعتقاد السائد هو أن « البريمي » تقع فوق حقول ضخمة للبترول ، والواقع أن شركات البترول والحكومات كانت تركز أنظارها بشكل رئيسي على منطقة بعيدة في الجنوب الشرقي ، ولا تعتبر البريمي اكثر من مفتاح الطريق إلى تلك المنطقة ، وكان خبراء النفط يتطلعون إلى خارطة كبيرة للمنطقة ، ويركزون انظارهم على بلدة تدعى فهود .

وكان ثمة سهل فسيح أشبه بالصحراء ، في المكان الذي يلتقي به الربع الخالي لشبه الجزيرة العربية بمرتفعات عمان ، ولا يقطن هذا السهل إلا الفقراء ، وفي هذا السهل تكثر الغزلان والظباء . وعند أول السهل توجد عدة تلال قليلة الارتفاع ، يخترقها ممر واحد ضيق ، وهذا الممر هو الذي بدا بالنسبة لعلماء طبقات الأرض اكثر الأماكن حظاً في احتمال وجود كميات كبيرة من البترول فيه ، وكانت مجموعة التلال تلك تدعى « جبل فهود » ، وقد انشأت شركة النفط معسكراً صغيراً هناك ، وراحت تنقل معداتها جواً ، وسيارات النقل ، عبر الصحراء من الشاطىء الجنوبي ، وكان من المقرر أن تبدأ عمليات الحفر بأسرع وقت ممكن . والحقيقة أن تلك المنطقة كانت منطقة معزولة تماماً ، فلما زارها أوروبي من قبل ، ولما حلقت فوقها وأنا في طريقي إلى « صغير » لم أر سوى مجموعة من الأكواخ ، ومدرج للطائرات ، وآثار سيارة نقل وهي تعبر الصحراء .

ويقطن منطقة « فهود » قبيلة بدوية تعرف باسم قبيلة « دورد » ، وهذه القبيلة لم تشترك في معاهدة « سيب » ، وعلى ذلك كانت أعجز من أن تقاوم الامتياز ، حتى ولو عرفت كيف ، ولكن سلسلة الجبال التي تشرف على تلك المنطقة ، كانت تحت سلطة الامام . وكذلك فإن تلك

المنطقة كانت معروفة بالأعمـــال الاجرامية والنيات السيئة ، فرأت شركة النفط نفسها مضطرة لمساعدة السلطان عن طريق تمويل جيش خاص جديد أطلق عليه اسم « قوة ميدان مسقط وعمان » ، مهمته حماية مصالح الشركة على أن يواصل عمله في المساعدة على إقرار النظام ، في تلـك البقعـة من الأرض التي لا تعرف النظام . وفي سنة ١٩٥٥ بدا أن هناك احتمالاً مؤكداً بأن تنضم إلى قوات الامام قوات أصدقائه السعوديين . وبذا يصبح تنفيذ امتياز التنقيب عن البترول من الأمور الصعبة ، وربما أدى ذلك الى ضياعه كلياً ، وتسليم بترول المنطقة الى الاميركيين ، « علماً منا بحقيقة كون هذا الامتياز سيظل موضع تساؤل حول شرعيته أو عدمها ، حتى تتم سيادة السلطان على عمان بأسرها » . وكان هذا الاحتمال بالنسبة للحكومة البريطانية من الامور المزعجة . وكانت تعتبر أولاً : أن إنزال ضربة قاصمة بمنطقة « فهود » تسهل بدء عمليات الحفر على نطاق واسع ، وبما سيؤول إلى دعم اقتصاديات بريطانيا المتضعضعة . ثانياً : نظراً لأن مخططي وزارة الحربيـة قد فقدوا معظم نقاطهم القوية في الشرق الأوسط ، فقد كانوا يولون نفط عمان اهتماماً خاصاً ، لأن من الممكن نقـله بالأنابيب مباشرة إلى الجنوب حتى المحيط الهندي . ثالثاً : كان مركز بريطانيا كله في منطقة الخليج ، قائماً على سلسلة من المعاهدات مع المشايخ ، وهو مركز كان مهـــدداً بتغلغل النفوذ المصري والسعودي ، والدول الاخرى التي كانت تدعم الامام . والسلطات البريطانية – رغم كونها لم تكن لترغب في الحديث كثيراً عن ارتباطاتها سواء مع السلطان أو مع شركة النفط – مهتمـة كل الاهتمام بالحالة في عمان .

وفضلاً عن كل هذا وذاك فان السلطان لم ير المنطق بوجهة نظر السلطات

البريطانية ، لأنه لم يكن بالرجل الثري ، كمهدنا بالسلاطين ، فقد أورثه والده مشاكل مالية كبيرة ، فبات لزاماً عليه أن يعالج اقتصاديات البلاد بمنتهى الحذر والدقة ، ومن الجائز أن يتيـح له نصف حصة البترول الذي سيستخرج من منطقة « فهود » الفرصة ليصبح أحد أثرى أغنياء العالم ، وتصبح لسلطنته كلمـــة تبعث الرعدة في أوصال المسؤولين عن وزارات المالية في العالم ، (والمعروف أن حاكم الكويت هو الممول الشخصي الوحيد الذي غطى العملة الجديدة المستخدمة في أسواق لندن ، وقد قدّر دخـله من أرباحه بمليون ونصف مليون جنيه استرليني في الأسبوع) .

أضف إلى ذلك أننا لو غضضنا الطرف عن البترول ، فان السلطان بطبيعته كان يكره فكرة تقسيم السلطنة بين عناصر أجنبية تنشط للعمـل في المنطقة التي يمكن اعتبارها ملكاً له بالوراثة ، ولكنه لم يزر عمان مطلقاً ، وإن كانت اسرته تتحدر من داخلها ، وعلى هذا الأساس فان وجهة نظره تستنـد إلى عوامـل اقتصادية وسياسيـة وعاطفيـة . وخلافـاً لما يقوله الجغرافيون ، كان يدافع عن آراء حول وضع كل من مسقط وعمان ، ويثبت بأن كلتيهما له .

وهكذا قرر السلطان ، والحكومة البريطانية وشركة النفط صاحبـــة الامتياز ، ذات يوم ، أن الوقت قد حان لتسوية الموضوع تسوية نهائية ، وكان النفط آنذاك على وشك أن يضخ من آبار منطقة « فهود » . وقد أدى إحتلال « البريمي » إلى تهدئة الوضع على الحدود ، بشكل مؤقت ، وكان الاقتصاد الاسترليني يهـــتز ، وكانت الدعايات المصرية والشيوعية ، بالاضافة إلى الذهب السعودي ، توالي الضربات على مركز بريطانيا ، حتى لقد بدا للحكومة البريطانية أن الحاجـة إلى سياسة انكلو – اميركية

مشتركة تجاه العرب ، أقل أهمية من الحاجة لايجاد مصادر نفط جديدة في منطقة مستقرة وصديقة . أما بالنسبة إلى السلطان فقد كانت جيوشه الأربعة المنفصلة ، في حالة حسنة تحت قيادة الضباط البريطانيين ، وقد استولت قواته على قرية أو قريتين ، تقعان على طرف المرتفعات ، وتتميزان بمركز استراتيجي . وأعدّت المرحلة في جو من الكتمان التام ، وبات لزاماً على السلطان أن يفرض نفوذه بالقوة على الجبال الداخلية في عمان .

وإنني لمتأكد من أنه لم يزر هذه المناطق الثانية غير ستة من الاوروبيين ، كما أن عدداً أقل قد غامر بالوصول إلى مناطق تلك القرى . ولم يكن يعرف عن المنطقة سوى النزر اليسير من المعلومات . وصحيح أن التجار كانوا يحملون بضائعهم إلى مسقط ، إلا أنهم كانوا يسلكون طريقاً مألوفة عبر الجبال ، تمر فيها قوافل الجمال حتى تبلغ الشاطىء . وقد وضع بعض المستكشفين البريطانيين خرائط لا بأس بها للمنطقة ، وحلقت الطائرات فوق سلسلة الجبال . وعلى كل فان ذلك الاقليم كان ما يزال خاماً من الناحية السياسية . أما ما يتعلق بالموظفين المحليين فقد كانوا جميعاً ممن عينهم الامام ، وكذلك فان جنوده السلطان وقضاته وموظفيه الاداريين ، وجامعي الضرائب ، والمعلمين يعينون من قبل السلطان ، ولا تعرف تلك البلاد نظام الإعلام القضائي .

وكان أول أوروبي قد اخترق سلسلة الجبال بقصد الاستكشاف ، بموافقة السلطان ، في الأيام التي كان فيها نفوذ السلطان يشمل عمان ، غير أن آخرين قد تمكنوا من اجتياز الجبال في المدة الأخيرة وقاموا بذلك على مسؤوليتهم ، وكانوا في بعض الاحيان يسافرون متنكرين . وعلى هذا ، فان سياسة السلطان تجاه البريطانيين ، كانت تدرس بعناية . وقد

امتدت تيارات النهضة حتى بلغت « نزوة » عاصمة الامام ، وكانت قوة ميدان مسقط وعمان بالاشتراك مع المتطوعين من الجنود البريطانيين متمركزين في « فهود » عند الجانب الساحلي من الجبال من جهة مسقط ، ووضعت القوة البريطانية (وهي قوة خاصة أخرى) على أهبة الاستعداد ، وأقيمت ارتباطات مع الزعماء الموالين في الداخل ، وبدا أن إحدى القبائل ذات النفوذ قد شجّعت على القيام بانقلاب ، وكان زعماء هذه القبيلة يفدون إلى « ظفار » حيث كانوا يجدون كل أسباب الرفاهية ، وحيث كانوا يأخذون في بعض الاحيان بنادق جديدة ، ويتلقون بعض المقترحات ، وكذلك دعمت الصداقة مع القبائل البدوية التي تقطن عند طرف الجبال ، وسرعان ما اتضح ان السلطان يعدّ الخطة للقيام بحملة .

وكانت الخطة تقضي بالتقدم نحو « نزوه » من جهة الغرب ، وذلك لإرغام الامام ومن يؤيده على الفرار إلى الجبال الشاهقة التي تقع بين القلعة والبحر ، حتى إذا ما حاول الفرار عبر الطريقين العمليين الوحيدين ، من بين التلال ، كانت طريق مقفلة بالقوات البريطانية التي سيعهد إليها بالقضاء على أي عدو قد يبرز لها من الجهة الساحلية لسلسلة الجبال . وأعدت كذلك الاتصالات اللاسلكية ، واقيمت مدرجات للطائرات ، واستعد الجنود لخوض معركة على الطراز القديم . ولقد كانت قوات السلطان على جانب كبير من القوة اذا ما قورنت بالقوات الموجودة في جنوب شرقي آسيا (حيث يسير كل شخص متنكباً سلاحه ، ولكن هذا السلاح غالباً ما يكون بندقية تقادم عهدها ، ولا تصلح إلا لابرازها في احد المتاحف) الامر الذي جعل من البين الواضح أنه لن تكون هناك مقاومة جدّية من قبل قوات الامام ، عندما تصل قوات السلطان إلى النقطة المستهدفة .

وجبال عمان ، تعتبر من اكثر مناطق العالم تخلفاً ، حيث لم تر أية سيارة هناك ، ولم يقرع جرس لهاتف ، ولم تدو طلقات مدفع رشاش ، وبالتالي فان الفيلق الآلي من قوة الميدان لا بدّ ان تتاح له الفرصة ليثبت تأثيره المعنوي . وهكذا ، وفي الوقت ذاته ، وضعت الخطط ليقوم السلطان برحلة بين اتباعه من المعتدلين ، وقبل ان تتلاشى أصداء آخر طلقات القتال عبر التلال ، سيقوم بمغادرة « ظفار » مخترقاً الصحراء المعروفة باسم « جدات الحراصيص » التي تعتبر صحراء مجهولة ، ثم يتوجه شمالاً على طول المنشآت البترولية ، حتى يبلغ « فهود » ، وفجأة وبدون تريث يرتقي الجبال ليتسلّم زمام السلطة من أعدائه المقهورين . وكان عليه أن يؤكد سيادته على البريمي عن طريق عقد اجتماع بينه وبين زميله شيخ ابي ظبي ، واخيراً سيتوجه نحو شاطىء الخليج ليدخل إلى مسقط دخول الفاتحين ، ومنها إلى العاصمة القابعة بين الصخور التي اطلق عليها البحارة اليونانيون القدماء اسم « الميناء المختفي » .

ولم يسبق لمثل هذه الرحلة أن قام بها ، وخاصة بالسيارات ، كما لم يسبق لاحد أن اخترق صحراء « جدات الحراصيص » ولم يقطع أحد المسافة بالسيارة ما بين « ظفار » ومسقط ، وكذلك فان جبال عمان لم تكن قد استكشفت ، وحتى وادي « جزير » ، وهو الطريق الواقع بين البريمي والبحر ، ظلّ — إلى سنوات قليلة فقط — مجهولاً ، باستثناء قليل من الاوصاف الركيكة التي ادلى بها بعض الاعراب الذين عبروا تلك المنطقة . وإذا ما أمكن قيادة سيارة من « ظفار » إلى مسقط ، فمعنى ذلك ان من الممكن قيادة السيارة على طول جنوب شبه الجزيرة العربية ، من عدن إلى خليج عمان . ولن تكون هذه الرحلة رحلة فعلية إذا ما

قورنت برحلات العرب القديمة التي كانت تستغرق اشهرا واشهرا على ظهور الجمال ، حيث كان المناخ يعرقلها ، وتؤخرها الاعمال العدوانية ، كتلك التي تعرض لها في الماضي المستكشفون الكبار لشبه الجزيرة العربية ، ولكن هذه الرحلة ستحقق نصراً مبيناً للسلطان .

وهكذا وجدتني في اوائل شهر كانون الثاني في « سلالا » عاصمة « ظفار » لارافق السلطان في مغامرته ، وكانت الحملة في عمان على وشك الشروع ، ولكننا لم نتلق بعد اية اخبار من الداخل ، ولكنني تسلمت ذات مساء المذكرة التالية الصادرة عن القصر ، وقد كتبت على الآلة الكاتبة من قبل السلطان نفسه على ورق ازرق فاخر وهذا نصها :

« تحياتي . لقد تسلمت رسالتك المؤرخة بتاريخ اليوم ، وانني لاشكرك على جميل تهانيك .

« كنت على وشك ان اكتب لك ، عندما تلقيت رسالتك ، ويسرني ان اخبرك بأنه قد سمح لك بمرافقتي الى عمان ، وانني لأحبذ كثيراً ما اعتزمت القيام به من كتابة مفصّل عن رحلتي ، وآمل لو تكرمت باهدائي نسخة مما ستكتب ، وارجو لك رحلة سعيدة ومريحة .

« ارجو ان تكون مستعداً للسفر يوم الاثنين ، التاسع عشر من كانون الثاني حوالي الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والاربعين بعد الظهر »

« سعيد بن تيمور »

- ٢ -

« ظفار - العساكر - سلالا - جبال قارا - شاي مع الوالي - القهوة - افضل من ركوب الجمال - قوم غوباء - اخبار سارة - الى القصر »

في الوقت ذاته ، كنت حراً - او شبه حر - في استكشاف اقليم « ظفار » .. وكان سلاح الجو الملكي قد انشأ مطاراً خارج قرية « سلالا » عاصمة الاقليم ، ولكنه حتى تلك الايام كان لا يسمح لاي اجنبي بالتجول في المنطقة دون ان يرافقه احد عساكر السلطان المسلّحين . وان ذكرياتي عن « ظفار » لترتبط بسكان المنطقة ، وهي ذكريات براقة . فقد كان معظم السكان هناك من اهالي عدن وحضرموت ، وجميعهم صغار الحجم ، سريعو الحركة شديدو الذكاء . لحاهم سوداء وكثّة ، وابتساماتهم عريضة ، وطريقة تحيتهم المألوفة هناك هي القيام فجأة واحناء الرأس ، ويلعب الحاجبان دوراً كبيراً في التعبير عما يجول في صدورهم من ودّ او كره ، ويعتمر العساكر العمائم فوق جلابيات واسعة ، مثقلة بأحزمة الرصاص والمدى المعقوفة ، وعندما يسرعون وهم حفاة الاقدام فوق الارض الوعرة ،

يفعلون ذلك بحركة هرولة غريبة وكأن اقدامهم ليست الا اظلاف ماعز .

ويحتل هؤلاء العساكر الذين اوكلت اليهم مهمة الحراسة ، مبنى قرب المدخل الواقع عند مطار سلاح الجو الملكي ، ويظلون هناك جالسين بانتظار عابر سبيل يزودهم بمعلومات غالباً ما تكون خاطئة ، فيحتسون واياه القهوة ويتبادلون الاحاديث ، وفي بعض الاحيان يعمدون الى الغناء لتسلية وحشتهم . وفي المساء ، يتوزعون في ارجاء المعسكر ، وفي ايديهم البنادق والغدارات ، حتى اذا ما ذهبت الى فراشك ، وجدت اثنين منهم على باب غرفتك ، وقد تسمع بعد منتصف الليل احد العساكر ، يغني احدى اغنيات الحب ، فيبدأ الغناء بصوت عميق مؤثر ، ثم لا يلبث ان يرتفع حتى يبدو صاحبه وكأنه قد اصيب بالحمى (والقبائل الصومالية في افريقيا تلجأ الى ذات الطريقة ، ولكن ليس لدفع الوحشة عن انفسهم اثناء ساعات الليل الطويلة ، بل لافهام اي عدو قد تحدثه نفسه بالعدوان انهم له بالمرصاد) وهؤلاء العساكر يظلون على اهبة الاستعداد بشكل مستمر ، فاذا ما غادرت في الصباح الباكر وانت في طريقك الى خارج المعسكر بقولك : « يا عسكري ! .. » فانك سرعان ما تجد امامك ثلاثة او اربعة عساكر يشدون احزمة الرصاص على صدورهم ويبتسمون لك اعراباً عن سعادتهم بمرافقتك .

وثمة اجراء او اجراءان يقيدان نشاطك الى حد ما في « ظفار » . فانت غير مسموح لك ان تدخن علناً ، لان التدخين ممنوع بأمر من السلطان ، كما لا يجوز لك ان تحتسي الكحول علناً ، لان المشروبات الروحية ممنوعة في كل مكان الا في معسكر سلاح الجو الملكي ، واذا ما اردت ان تلتقط صورة ، فينبغي عليك ، والحالة هذه ، ان تلتقطها من

نافذة سيارتك . والحقيقة ، ان « ظفار » ليست الا جنة ولكنها متخلفة ، تقع على شاطىء البحر ، ولا يود السلطان – الذي يديرها كما لو كانت من ممتلكاته الخاصة – ان يراها تتقدم .

وتبدو « ظفار » بالنسبة لمن يعتقد بأن شبه الجزيرة العربية ليست الا صحراء مترامية الاطراف ، تبدو مفاجأة مذهلة ، فالصحراء تحيط بها بالفعل ، غير ان الاقليم ذاته يحتوي على جبال تمتد حتى البحر من الناحيتين الشرقية والغربية ، وتضم سهلاً فسيحاً على شكل هلال مليء بالمزروعات والاشجار ، وكان هذا المكان فيما مضى يشكل جزءاً من الشاطىء القديم الذي اشاد به الجغرافيون القدامى ، والذي كانت تنتشر فيه حضارة سبأ الزاهرة ، وكانت اشجار « اللبان الذكر » التي تنمو في القسم الداخلي من منطقة التلال ، حجر الاساس بالنسبة لثراء كثير من البيوتات التجارية ، لانه كان يصدّر من « ظفار » الى اماكن عدة ونائية ، حيث يباع بأسعار عالية (ما زال هذا النوع من الشجر ينبت هناك حتى الآن) . ولعل هذه المنطقة هي افضل المناطق في شبه الجزيرة العربية بأسرها . ويجري عبر سهل « جربيب » الذي يقع خلف « سلالا » جدولان من المياه العذبة تستعمل في ري المزروعات وحدائق العاصمة . وتجد هنا وهناك آباراً للري ، يدور حول كل بئر منها جملان ، يحثهما على الدوران زنجي عار الظهر ، فتدور معهما عجلة تحتوي على أوعية تغرف الماء من البئر وتصبه في القناة بشكل رتيب . والسهل سالف الذكر لطيف ، تحرسه سلسلة من الجبال ، وفي ذلك السهل كذلك بقايا معبد قديم ، لاحدى الديانات القديمة يبلغ طوله حوالي ثلاثين قدماً ، ولم يبق من هذا المعبد الا كومة من الحجارة غير المشذّبة ، والى جانبها كومات هائلة من حجارة

ايضاً ، هي كل ما تبقى من مدينة « بليد » التي كانت قائمة قبل الاسلام . وليس في « ظفار » طرق ، وان كانت هناك ممرات ضيقة تخترق الساحل وتصل الى التلال ، وكثيراً ما يجد المرء على طول هذه الممرات اشخاصاً ملتحين يتنكبون بنادقهم ، وكل واحد منهم يريد ان تستصحبه معك بسيارتك الى « سلالا » .

وليست عاصمة اقليم « ظفار » بالمدينة الكبيرة ، ولكنها تتألف من مجموعة من القرى تنعم بأقصى حدود الهدوء والسكينة ، وتوجد في الوسط مجموعة بنايات مربعة كبيرة وعالية تبدو عن بعد وكأنها ناطحات سحب وهي مزينة بنقوش كتلك التي استعملها النبطيون في البتراء ، غير انها كانت هزيلة البناء ، واذا ما وصلت اليها ، وجدتها عبارة عن بنايات متهدمة ، يقف حولها عدد من الرجال الملتحين المتقدمين بالسن ، وكل منهم يتنكب بندقيته ، ولم استطع ان افهم سبب حراستهم تلك الاكوام من الحجارة . وقد غادر تجار البخور الاثرياء « ظفار » من زمن بعيد ، ولم تعد « سلالا » الآن اكثر من بلدة هي اشبه ما تكون بالسوق ، وميناء بسيط ، وهي الى ذلك مقر السلطان . وتتجول في شوارعها مجموعة غريبة من الناس ، وعلى الرغم من انهم عرب ، الا انهم ينتمون الى مختلف القبائل . ورغم ان الرجال صغار الحجم ، نحال لاجسام ، الا انهم يسيرون بكبرياء وأنفة ظاهرتين . اما النساء ، فهن تحت المراقبة الشديدة ، محجبات يعتمرن لباساً ثقيلاً ويضعن على وجوههن اقنعة مفتوحة عند العينين والانف ، ولولا هذه الفتحات في الحجاب لمتن اختناقاً نظراً لصفافة الحجاب . ثم هنالك العبيد والرجال الاحرار من سود البشرة ، وهؤلاء مكتنزو الاجسام ، يرتدون ملابس فاخرة ، وتسير نساؤهم سافرات ،

وكثيراً ما يخرجن من بيوتهن الواقعة في بساتين النخيل ، ليلقين نظرة على المارة ، ويتزين بالحلى ، او الخرز . اما رجال الجبال ، فبشرتهم سوداء ، ولا يرتدون ملابس تميزهم عن غيرهم ، ولكن شعورهم مسترسلة ، وأعينهم دائمة اللمعان ، ويجري عشرات الاطفال او اكثر في شوارع البلدة ، يصيحون ويملأون الدنيا ضجيجاً ، وكثيراً ما يعمد الآباء الى حلاقة شعور اولادهم ، غير انهم يتركون في وسط الرأس خصلة تظل منتصبة كعرف الديك . اما الجنود الذين يرتدون البزة الخاكي ، فقلما يشاهدون في المدينة (غير انك تستطيع ان تسمعهم اثناء وجودهم في معسكرهم خارج البلدة وهم يتدربون على استعمال التخاطب باللاسلكي بطريقة مورس) ، ويرى في بعض الاحيان ماراً في شوارع المدينة احد شيوخ القبائل التي تعيش في الداخل ، وحوله مظاهرة من اتباعه وابناء قبيلته .

غير ان القصر الذي يشرف على المكان ، فيشبه قلعة وندسور . وكل العواصم في شرقي شبه الجزيرة العربية التي تقع على الشاطىء ، لها قصور هي في الواقع قلاع كبيرة ، يتوجه اليها الحكام للإشراف على تصريف امور الدولة ، وضخامة كل قصر من هذه القصور يعتمد الى حد كبير على واردات كل حاكم من النفط ، وقصر حاكم الكويت هو اعظمها وان كان قصر حاكم البحرين اجملها . اما قصر الدوحة فأفظعها ، وربما كان قصر سلالا ألطفها ، وهو مشيد عند شاطىء البحر مباشرة ، وهو عبارة عن بناء طويل ، محاط بسور عالٍ ، تتشابك في داخله الطرق والممرات بشكل معقّد ، وهناك مساحة واسعة من اشجار النخيل تؤدي الى بوابة المنارة الواقعة عند مدخل القصر ، وتجد في نافذة فوق البوابة رجلاً ملتحياً يعتمر عمامة بيضاء ، يراقب المناظر التي تقع عليها عيناه ،

او يفكر في معضلة من معضلات الشطرنج ، وهذا الرجل هو مهندس السلطان . ويرى في بعض الاحيان رجل هندي يعتمر قبعة كبيرة ، يدخل بوابة القصر في سيارة . وهذا هو ميكانيكي السلطان . وفي صباح كل يوم ثلاثاء ، يرى رجل انكليزي نحيل في بزة عسكرية يخرج من القصر بعد ان يكون قد عقد اجتماعه الاسبوعي مع الحاكم ، وهذا هو قائد حامية « ظفار » التي تعتبر جيش السلطان المحلي . ويحرس البوابة رجال عبيد اقوياء مدججون بالسلاح ، وفي احدى زوايا القصر يقع السجن ، حيث يوضع فيه كل اشرار ومجرمي « ظفار » .

ويملك السلطان قصراً تحيط به حديقة ، قريباً من الشاطىء ، وهذا القصر على ما اذكر ، جميل المنظر ، هادىء الموقع ، يريح الاعصاب ، ويبعث في النفس السعادة ، وقد لمست ذلك عندما اضطجعت امام البركة الواقعة امام القصر ، ورأيت جبالاً من المياه تتدفق من كل حدب وصوب فترطب الجو ، وينعش رذاذها الجسم . وحديقة القصر غاصة بضروب نادرة من الازهار الفواحة ، الا ان اريجها كان يختلط بدخان مبعثه احراق شيء ما خارج اسوار القصر . وامام اشجار النخيل ، رأيت مركباً ابيض اللون ، كان لا ينفك يقلع الى مسقط ليوقر بالتمور (والجدير بالذكر ان اشجار النخيل في ظفار لا تثمر) وقد جلس العسكري المرافق لي متربعاً عند الشاطىء ينظف اسنانه بعود صغير ، ويبتسم برضا وسعادة ، وهناك ايضاً مساحة واسعة مزروعة باشجار الكاكاو ، تداعب النسمات اغصانها .

هذا ويمكن القول بأن عدداً قليلاً من المسافرين قد تجوّل في المناطق الداخلية لمنطقة « ظفار » ، وليس كل الشاطىء جميلاً جمال القصر . فالى

الشرق من « سلالا » يتدرب الجنود وهم بملابس الميدان ، والى الشمال يقع المطار الذي يمكن اعتباره نقطة التقاء الطائرات المتوجهة الى الشرق والى الغرب ، وفي هذا المطار تهبط جميع الطائرات بما فيها الطائرات النفاثة المقاتلة ، والى الغرب يقع معسكر لشركة بترول ، اذ ان البحث عن البترول الذي لا ينقطع قد وصل الى هذه النقطة المحبوبة من شبه الجزيرة العربية وعلى بعد حوالي عشرة اميال يوجد مرفأ صغير يدعى « ريسوت » وهو مرفأ صخري كأحد الخلجان في كورنوول او كارولينا الشمالية . وتوجد على الصخور المطلة على المرفأ بقايا قلعة برتغالية شيدت عندما كان المستعمرون البرتغاليون يسيطرون على شواطىء شبه الجزيرة العربية ، فشيدوا قلاعهم ومصانعهم على طول امتداد الخليج العربي ، ثم غرباً حتى عدن ، وشرقاً حتى الهند . وهم الذين كانوا يطلقون على انفسهم لقب « سادة الفتوحات ، والملاحة ، والتجارة مع الهند وايثوبيا وشبه الجزيرة العربية وبلاد فارس » . وبعد اربعة قرون بنت احدى شركات النفط الاميركية فوق هذا المرفأ ، معسكراً ، مديره انكليزي ، وطبيبه الماني ، وكان هنالك فرنسيون ، وايطاليون ، وهنود ، وعرب ، واميركيون ، وهم جميعاً يأكلون معاً في كوخ بالقرب من البحر . وتشحن المواد الى « ريسوت » من عدن ، على ان تنقل على سيارات نقل ثقيلة عبر السهل وفرق التلال ، الى الصحراء الواقعة خلف التلال ، وهي صحراء لا يعرفها الاوروبيون الذين كانوا يقومون بأعمال التنقيب عن البترول هناك . وكانت حالة الاوروبيين الصحية ممتازة ، ولكنهم كانوا يتذمرون من ان حياتهم في هذه المنطقة المعزولة تبعث على السأم ، كما انهم كانوا يشتكون من فقدان النساء ومختلف القيود التي تفرضها التقاليد الشرقية ، وهم يعتقدون بأن موظفي السلطان يثقلون كواهلهم بالضرائب الجمركية .

ويضايقونهم فيما يتعلق بمنح سمات الدخول وقد ذكروا لي ان احد رجالهم قد جاء من عدن بسمة دخول غير تامة الاجراءات ، فأعيد من حيث اتى ، ويقولون انك لا تتوقع ان تجد مثل هذه الامور في منطقة ساحلية معزولة ، وكذلك فانهم محرومون تماماً من تناول المشروبات الروحية حتى في معسكرهم ، فاذا ما خطر لاحد ان يشرب كأساً ، كان عليه ان يذهب الى نادي سلاح الجو الملكي ، ويقولون : « يجب ان تكون بريطانياً لكي تحصل على اي شيء من هناك » ، وهم يذكرون شكواهم هذه ولكن ليس بكثير من المرارة .

وقصة امتياز التنقيب عن البترول مثل واحد من الامثلة التي تتبعها اميركا في تنفيذ مشاريعها . وقد زار عالم آثار مغامر يدعى « ويندل فيليبس » وهو شاب اكتسب شهرة من وراء بعثة حالفها سوء الحظ في اليمن ، زار هذا « ظفار » ليفحص بقايا المدن السبئية ، وتمكن اثناء مقامه في الاقليم ان يحوز على رضاء السلطان الى درجة كبيرة ، وعمل كوسيط في المحادثات التي تمخضت عن منح امتياز لشركة نفط اميركية في الاقليم الجنوبي . وقد كان لهذا الامتياز صدى يفوق صدى الانقلاب . فقد كانت الشركات البريطانية والاميركية التي تعمل في منطقة الشرق الاوسط ، تتبع طريقة منح حصص من الارباح ، غير ان المنافسة بينها كانت لا تزال جادة ، مع انها من الناحية الجغرافية ، كانت تقتسم المنطقة بعدل وتتحمل مسؤولياتها هناك كاملة . وصحيح ان الاميركيين قد تسللوا تدريجياً الى مناطق احتياطي النفط البريطانية ، وقد بلغت حصة اميركا من ارباح النفط المستخرج من الشرق الاوسط سنة ١٩٣٩ ، ثلاثة عشر بالمائة ، بينما بلغت حصة بريطانيا ستين بالمائة ، وبعد خمس عشرة سنة

وصلت حصة اميركا الى خمسة وستين بالمائة ، وحصة بريطانيا الى ثلاثين بالمائة ، بينما كان بترول الشرق الاوسط في يوم من الايام تحتكره بريطانيا وحدها . وفي سنة ١٩٥٤ ، غادرت الشركات البريطانية المنطقة ولم يبق لها الا اغلبية من الحصص في ايران والعراق واسفل الخليج العربي ، ونصف الارباح من بترول الكويت . ولكن علماء طبقات الارض الانكليز كانوا ما يزالون منهمكين في البحث عن البترول في كافة انحاء جنوبي شبه الجزيرة العربية من عمان الى جزيرة « كمران » في البحر الاحمر . وقد بقيت مصالح بريطانيا البترولية في هذه المناطق مصانة ، وقد نقبوا في « ظفار » دون نتيجة ، فتخلّوا عن الامتياز ، ثم جاءت خطوة « ويندل فيليبس » التي تعني دخول الاميركيين لاول مرة ميدان المنافسة ضد البريطانيين للحصول على بترول جنوب شبه الجزيرة العربية .

وعندما كنت هناك ، كان الحظ لم يحالفهم بعد ، رغم انهم حفروا الى عمق ١٢،٠٠٠ قدم ، ولكن حدثت بعض المضايقات التي أدت الى تأخير العمل ، بسبب مطالبة السعوديين بمناطق الحدود الجنوبية ، ومطالبتهم كذلك بالمناطق الشرقية ، (وتظهر خرائطهم ان كل ساحل شبه الجزيرة العربية باستثناء شريط ساحلي ضيّق هو ارض سعودية) وكنتيجة لهذه المطالبات ، أمرت قوات « ظفار » بالوقوف على اهبة الاستعداد لصد كل محاولة تقوم بها المملكة السعودية التي دفعها الطموح الى الاستيلاء على كل مكان يوجد فيه بترول في شبه الجزيرة العربية . وقد رافق السلطان نفسه بعثة استكشافية الى الحدود ، ولكنه لسوء الحظ لم يصل الى هدفه ، بسبب تعذر سير السيارات على الرمال الناعمة . وكانت نقطة الحدود عبارة عن بئر ماء معزولة .

وقد ارسل الاميركيون انفسهم سياراتهم الضخمة وجراراتهم الى مسافات بعيدة فوق الجبال الى اماكن الحفر ، واستغرقت الرحلة مدة يومين او اكثر ، وامضى المرافقون لهذه الآليات ليلتين الى جانب سياراتهم . وكانت الطرق الجبلية التي يسافرون عليها غير معروفة تماماً قبل بضع سنوات ، ولم يقم بمسحها الا مستكشف واحد او مستكشفان ، ثم عادا ليقولا ما رأياه للجغرافيين والجمعيات الجغرافية ، اما الآن فان رجال النفط قد رضوا بالمقام في منفاهم فوق هذه الجبال ، وكانوا يلعبون « الدومينو » قبل ان يأووا الى فرشهم ، ويضعوا صور زوجاتهم الجميلات الصغيرات وكذلك صور اطفالهم الى جانب بطانياتهم في تلك الارض الموحشة .

وربما لم يدركوا كلهم انهم انما ينامون في اروع سلسلة تلال على وجه الارض . ونظراً لمعجزة الريح ، فان اقساماً من جبال « قارا » هذه مغطاة ببساط من النباتات الخضراء وكثير من الازهار ، وقطعان الماشية ، وقبائل غريبة ليست عربية ، قد تعيش على الدوام في الكهوف ، وافرادها لا يكادون يرتدون أية ملابس ، فهم شبه عراة ، يتحدثون بلغة خاصة بهم ، ويمارسون عاداتهم وطبائعهم الغريبة . وكان هنالك عدة قبائل من هذا النوع ، غير ان اقواها كما يبدو هي قبيلة القارا ، التي اطلقت اسمها على تلك التلال . (رغم انها تسمى محلياً بتلال شحارا نسبة الى قبيلة كبيرة كانت تعيش هناك) . وهناك بضعة ممرات تفضي الى الجبل ، وثمة ممر او ممران يدوران حوله ، ولكن افراد تلك القبيلة كثيراً ما كانوا يُرون في « سلالا » او في السهل . وعندما تهب الرياح تلفّ الجبال بطبقة من السحب ، بعضها كثيف وداكن ، وتحلّق على علو منخفض فوق « جربيّب » وتغطي « سلالا » بطبقة من الضباب . ويتحتم على الطائرات التي تريد

الهبوط في المطار ان تحوّم على ارتفاع بسيط فوق سطح البحر لتفادي الضباب ، كما ان السفن لا تستطيع ان تفرغ حمولتها في « ريسوت » او « سلالا » .

وقبل شهر او شهرين من هذه الفترة من السنة ، ينحدر افراد قبيلة القارا من جبالهم ، ومعهم مواشيهم ودروعهم وعصيهم ، وما يملكون من ملابس قليلة مهلهلة ، وعندها يعج بهم السهل ، وتبدو غرابتهم واضحة للعيان بالنسبة للسكان المحليين ، ثم يأخذون في التجوّل كالمشدوهين في اسواق سلالا الصغيرة حيث ترى النساء الزنجيات منتشرات بسلالهن وقدورهن المملوءة بالسمك والفاصولياء ، وهن يعلقنها على اعواد في الهواء .

وفي الاوقات الاخرى من السنة ، ورغم انك قد تشاهد عدداً قليلاً من هؤلاء الناس في « سلالا » الا انه يمكنك ان تصل الى سفح الجبال دون ان تمر بواحد منهم على الاطلاق ، ولكنك تشعر بأن مئات الاعين السوداء تراقبك من الكهوف والجحور المنتشرة في تلك الجبال . وقد عبرت ذات يوم السهل ، وارتقيت منطقة صخرية في الجبل تنتشر فيها الجداول والبرك ، وخيّل الي ان هذا المكان حافل بالاسرار ، فالصخور العالية تحيط به من كل جانب ، وتغطي اشعة الشمس الباهتة والحشائش اليابسة ارضه . وتوجد في اكبر البرك ، ومياهها صافية وهادئة ، اعداد كبيرة من السمك ، ولكنك لا ترى انساناً هناك ، ولا اي اثر يدل على ان المكان مأهول ، الا من الافاعي التي تنساب بكل هدوء بين الحشائش اليابسة غير مكترثة بشيء .

وكان ثمة طائر من طيور مالك الحزين ، يقف على صخرة عالية ، وبدا

كأنه منهمك في اعداد عش لصغاره . وقد سر الجنديان اللذان يرافقانني لرؤيته .. لم لا وهو سيتيح لهما فرصة تناول عشاء فاخر ؟ وامسكا ببندقيتهما لاصطياده ، وكان احد الرجلين طاعناً في السن غير ان له اذنين حادتي السمع ، فجلس تحت احد الادغال ، واتخذ احتياطاته الضرورية ، فوضع فرع شجرة تحت ماسورة البندقية ، ثم اطلق النار ، والغريب انه اصاب الهدف ، فقفز من مكانه فرحاً وراح يطلق صرخات سعيدة ، واسرع نحو صيده الثمين . ولكن الطائر المسكين كان قد سقط بين صخرتين مرتفعتين ، وقد حاول جهده لاخراجه من هناك ، الا ان محاولاته ذهبت ادراج الرياح . واخيراً تركناه حيث هو ، وواصلنا سيرنا وسط الحشائش دون ان نتمكن من احضار صيدنا معنا . ورأينا طائراً آخر من ذات النوع ، فتولّى العسكري الثاني مهمة اصطياده ، فركع على ركبة واحدة ، وصوب بندقيته ، ثم اطلقها ، فتدحرج الطائر من عليائه الى اسفل الصخرة ، ولكنه لم يلبث ان تحامل على نفسه ، ووقف على قائمتيه بكبرياء ، ثم طار بصعوبة الى مكانه السابق في اعلى الصخرة .

وسألت العسكريين ممازحاً : « هل يوجد جن في هذا المكان ؟ » ولكن العسكريين — اللذين بدوا وكأنهما نسيا كل شيء عن الحادث — هزا رأسيهما اللذين لا يحتويان على كثير من الدماغ وقالا : « جن ؟ كلا .. ولكنك قد تجد الجن عند بركة اخرى في اقصى الشرق ، اما البرك المنتشرة هنا ، فلا يؤمها من الناس الا الذين يقطنون المناطق الداخلية ، والذين كثيراً ما يهاجمون قطعان الماشية العائدة لقبيلة القارا » . وقالا ان رجال التلال لا يحبون المناطق المعزولة كهذا المكان الذي يشاطر افراد قبيلة القارا فيه الافاعي ، ومختلف الزواحف المؤذية ، وحيث يعتقد الناس

بأن ارواح الموتى هي التي تجري المياه في الجداول ، وقالا : لا تستغرب اذا ما وجدت رأسك مفصولاً عن جثتك في سبيل دولار واحد ، ان افراد قبيلة القارا لا يتورعون عن ارتكاب اية جريمة في سبيل ربح مهما كان بسيطاً .

وفي مناسبة اخرى توجهت شرقاً برفقة مستشرق انكليزي يعيش في « ظفار » ومررنا بالمعبد الهائل ، وحدائق السلطان الساحرة حتى وصلنا الى قرية « طاقا » وتحرسها قلعة حصينة قائمة فوق تلة . ووراء هذه القلعة ، وانحداراً نحو الشاطىء ، كنا نرى خرائب « حرباط » القديمة التي كانت تصدر منها محصولات المنطقة ، كما ان سلعاً عديدة من مختلف البلدان كانت تمر بها في طريقها الى اسواق شمالي وغربي شبه الجزيرة العربية .

وقد انشأ هذه المدينة ، السبئيون ، ويبدو انها شهدت اياماً زاهرة ، في القرن الاول قبل الميلاد ، ثم سيطرت على معظم ارجاء ساحل جنوبي شبه الجزيرة العربية ، من عدن الى ظفار ، فشهدت تجارات رائعة وعاصرت عهد ملاحة نشطاً ، واقام التجار والبحارة مستعمرات لهم باشروا فيها تجارتهم واعمالهم ، وامتد نشاطهم حتى بلغ سوريا وبلاد الرافدين . وكان هنالك قبل عشرين قرناً من الزمان طرق برية ممتازة تمتد من مدن المحيط الهندي الى معقل النبطيين ، وقد شقت هذه الطرق في الصخور التي تكتنف جبال « إدوم » التي تبعد مسافة ألف ميل الى الشمال .

وكانت « طـــاقا » قرية فقيرة ، بل لعلها كانت افقر المدن الساحلية على الاطلاق ، رغم ممارسة سكانها تجارة القردة والبخور والحرير الصيني والعاج والريش ونصال السيوف الهندية واللؤلؤ المستخرج من الخليج ، اذ

انها كانت مقراً للوالي ، وهو الممثل المحلي للسلطان ، وهي بذلك على خلاف « ظفار » التي كانت تحكم من قبل السلطان مباشرة ، والتي كانت مركز حكومة مسقط ، ووزير خارجيته البريطاني الذي لم يكن يملك اية صلاحيات على الاطلاق هناك ، بينما كان الوالي يمثل السلطان مباشرة .

وكنا قد اعتزمنا مغادرة قرية « طاقة » من جهة الشاطىء ، والتوغل باتجاه الجبال ، ولذلك فقد توقفنا هناك لنقدم احتراماتنا ، وسرعان ما دخلنا الى البيت المصنوع من طوب طيني ، ذلك البيت الذي يتخذه الوالي مقراً له ، وكان رجلاً معتزاً بكرامته ، شديد الذكاء ، يتنكب بندقية ، وتتدلى من وسطه ساعة جيب ، ولما قابلناه قادنا الى السطح عن طريق سلم ضيق ، وكان السقف مظللاً بسعف النخيل ، وفرشت ارضه بالسجاد ، وهناك خلعنا احذيتنا وجلسنا : الوالي والمستشرق الانكليزي وأنا ، بينما جلس عدد من الوجهاء باسترخاء على الارض وقد تربعوا ، بينما كانت قبضات خناجرهم تلمع ، وفوهات بنادقهم مصوّبة نحو السماء ، وجلس في الوسط ، جنديان من قوة « ظفار » باحترام بالغ . وقد استل جاري ، وهو احد زعماء القبائل الشباب ، خنجره ، ليريني صناعة الخناجر العمانية ، بينما جلس الوالي مسنداً رأسه الى كفه بعد ان وضع ساعده على ركبته ، وهناك تناولنا الشاي وكان ذا لون قاتم .

وسألنا الوالي : « وهل رأيتم الطائرات الجديدة ؟ »

فأجاب : « لا والله ، ولكننا رأيناها تحلّق في السماء فقط ، فهل لك ان تخبرنا ما مدى سرعتها ؟ »

فقال رفيقي : « انها تقطع المسافة الممتدة ما بين هذا المكان والبحرين ، في عشر دقائق ، ومن هنا الى المدينة في نصف ساعة ، ومن هنا الى جدة

والعودة مرة ثانية في غضون ساعة » .

فسألنا الوالي : « وما هو نوع المحروقات التي تستعمله ؟ »

فقلت : « كيروسين .. هل لديك اي شيء من الكيروسين ؟ »

فقال : « بكل تأكيد .. ان بلادنا غنية بالكيروسين ! »

فقلت له : « لماذا لا تملك طائرة خاصة بك يا سيدي الوالي ؟ »

وبدا ان الوالي قد احتار لسماعه هذه المعلومات ، ولكنه بعد ان فكر بها فترة من الزمن ، استنتج انها لا بد وان تكون مجرد نكتة ، فأطلق ضحكة مجلجلة ، وسرعان ما سرت عدواها الى الوجهاء والجنود ، فاستغرقوا في ضحك متواصل ، وحتى الخادم المكلف بصب القهوة لم يتمالك نفسه ، فراح يضحك ويرقص في حركات كتلك التي يقوم بها افراد السيرك ، وهو يحمل ابريق القهوة في يده ، يصب منه في الاقداح الموضوعة امام الرجال .

وخلال هذا السرور الذي كان باعثه معلوماتي عن الطائرة ، همس زميلي المستشرق في اذني ، وكان يجلس باسترخاء ، وكأنه عربي اصيل ، وقال : « ان جارك الثاني الذي يجلس الى يمينك هو والد زوجة السلطان » وتطلعت حولي ، لأرى رجلاً منتفخ الوجه ، حافي القدمين ، يعتمر عمامة كبيرة ، ويسمح لنفسه بالجلوس بحرية تامة . وينحدر السلطان سعيد بن تيمور من آل — ابو سعيد — وتزوج من فتاة بدوية تعيش في قصره في « سلالا » وتعامل باحترام ، وقد انجبت له ولداً واحداً فقط . ويعيش حول كل ملك شرقي مجموعة من الحريم ، غير ان السلطان كان رجلاً قنوعاً من كافة النواحي ، كما ان والد زوجته يحظى منه ومن

ابناء البلد باحترام بالغ ، ولذلك لم يتخذ السلطان لنفسه حريماً ، بل ظل وفياً لزوجته .

واستأذنا من الوالي بالانصراف ، ودرجت بنا السيارة تغادر قرية « طاقا » متجهة نحو التلال ، وبعد ان قطعنا مسافة قصيرة خارج القرية ، وجدنا الطريق مسدودة بحجارة كبيرة . وقد فُسّر لي الامر فيما بعد على ان اهالي « طاقا » كثيراً ما يقومون بمثل هذه الاعمال دون سبب معين . ونزلنا لنزيل الحجارة ، ثم واصلنا السير في السهل الفسيح ، وكانت منحدرات الجبال المواجهة للبحر ، في ذلك الوقت من العام عبارة عن صخور جرداء ، الا من بعض الاشجار القليلة التي تنمو بينها ، ورأيت عدداً قليلاً من اشجار الزيتون البرّي تنمو هناك ، وهبت نسمات رطبة من جهة البحر ، ولكنها كانت مشبعة بالملح ، وقد سارت بنا الطريق بشكل لولبي الى اعلى التلة وسط قطعان من الماشية كانت تسد الطريق في بعض الاحيان ، دون ان يكون معها اي راع يشرف عليها ، وسرعان ما تركنا الطريق السهل وراءنا . وكلما اوغلنا في تسلق التلة ، بدت لنا الحياة هناك مفقودة اكثر ، حتى ليخيل للمرء بأن تلك المنطقة لا يسكنها احد من بني البشر . اذ اننا لم نرَ احداً من افراد القبائل ، ولا اية برك ماء ، كما ان الارض هناك كانت خالية من كل آثار الزراعة . وفجأة دارت بنا الطريق حول زاوية ، فوجدت امامي هناك منظراً غير عادي ، لم ارَ له مثيلاً في حياتي من قبل ، فقد وجدنا امامنا — وبشكل يسد الطريق — هوة هائلة تعرف باسم هوة « دهاقا » وتعتبر احدى عجائب شبه الجزيرة العربية .

وقد ذكرتني هذه الهوة على الفور بهوة « بولدر » او « غراند كولي »

سواء من حيث الحجم او الشكل . وفي تلك النقطة يجري جدول ماء ، يسمونه وادي « خربات » ، وينحدر هذا الجدول من اعالي التلال ويتفرع فجأة الى عدد من الجداول ، تصب كلها فوق « الدهاقا » على عمق خمسمائة قدم . وكان السهل ، سواء تحت او فوق الهوة ، كما ان التلال ترتفع الى جانبيه بشكل فظ ، غير ان القمة تقف كرمز لمرحلة انتقال بين الحياة والموت ، او على الاقل بين الشباب والشيخوخة . وعند السطح تتدفق المياه الى وادٍ لم ارَ فيه اي اثر للحياة ، وان كان مليئاً بالحجارة ، ولا يخفف من كآبة منظره غير بضع اشجار ، وبعض برك الماء المنتشرة هنا وهناك . غير ان الوادي الذي نحاصره التلال ، وهو الوادي الذي يعرف باسم « خربات » لا يلبث ان ينقلب الى ارض خصبة تبهر النظر ، لما تحتويه من مزروعات ، وقد رأينا هناك حقولاً للقطن واشجار النخيل والفلفل الاحمر الحار ، كما رأينا عدداً من الاكواخ ، وجداول ماء عذبة تجري بين الحقول ، قبل ان تنحدر من فوق القمة الى الهوة ، كما شاهدنا هناك قطعاناً من الابقار والاغنام ترعى الكلأ باطمئنان ، ولكنها لم تعق طريقنا الى التلال . ويبدو « الدهاقا » على شكل سد غير مستعمل ، فخور بما كان عليه في زمن مضى ، حيث كان له خزّان ، ولكنه طمر نتيجة تراكم الطمي فيه قروناً عدة ، حتى اصبح حديقة خصبة

ويمكن القول بأنه حتى ذلك الوقت ، لم يزر تلك المنطقة غير عدد قليل من الأوروبيين . وكان المستكشفان البريطانيان « مايل » و « ثيودور بنت » هما اول من وقعت اعينهما على « الدهاقا » وكان ذلك عام ١٨٩٠ ، وتلاهما « برتران توماس » وقد زار المكان بعدهما بحوالي اربعين سنة . ومنذ ذلك الوقت انشأ رجال سلاح الجو الملكي مطارهم ، وبات كل من

رجال سلاح الطيران ورجال شركة البترول يعرفون منطقة « ظفار » الا انهم بشكل عام لم يزوروا « الدهاقا » بسبب القيود المختلفة المفروضة على تنقلاتهم . واسرعنا بخلع احذيتنا وجواربنا ، وشمّرنا ملابسنا ، ودلفنا نسير في مياه الجدول وعلى ضفته التي تحدد شكل القرية الموجودة هناك . وكانت هناك طريق يمكننا ان نسير فيها بدلاً من ان نخوض في الماء ، ولكنها كانت كثيرة المنحنيات ، ففضلنا ان نختصر الطريق . وقد لفت الجنديان انظارنا قائلين : « احذروا من الافاعي ! انها خطرة جداً في هذا المكان » . ولكننا استطعنا ان نغادر المكان دون ان تلسع اياً منا اية افعى . وبعد ان سرنا على الارض القاسية مسافة قليلة رأينا بضع قرى كان سكانها يراقبون تقدمنا باتجاههم بكثير من الاستغراب ، فخرجوا ينتظرون وصولنا .

ووجدنا جميع السكان هناك من الزنوج ، ويرتدون دشداشات طويلة ، ويعتمرون عمائم ملونة ، وهم في الغالب قد انحدروا من آباء عبيد عتقوا فتركوا الشاطىء ووفدوا الى هذا المكان ، وقد حيتنا امرأتان سافرتان ، جميلتان بهمهمة وكلام لم افهم منه سوى انه عبارات ترحيب باللغة العربية . ونساء العبيد المعتوقين هن اسعد النساء في « ظفار » وذلك لانهن اذا كان وضعهن فوق المتوسط ، فان حريتهن في العمل كانت تامة . ولما كان هؤلاء القوم شديدي السواد ، وعظامهم بارزة ، ويسكنون في بيوت مغطاة بالحشائش ، وخرافهم وماعزهم ، تلهو حولهم ، ومحاصيلهم خضراء يانعة ، والريح هناك منعشة تداعب اغصان الاشجار ، فان المرء ليظن لأول وهلة أن « الدهاقا » القريبة جداً من ساحل جنوب شبه الجزيرة العربية ، تبدو وكأنها قطعة في قلب افريقيا .

وتجولنا بين الحقول ، وكنا نسير وراء بعضنا بعضاً في صف مستقيم ، الى ان وصلنا الى نقطة تنحدر عندها الارض انحداراً مفاجئاً ، وقد ذكرتني تلك النقطة بوادي « يوسيايت » الذي نصحت بأن اصل اليه زحفاً ، كي اتجنب الدوار . ومن المؤكد ان « توماس » عندما زار « الدهاقا » سنة ١٩٢٩ قد زار طرق الهوة . وسرنا وفي انفسنا شعور من القلق ، لعل مبعثه تلك الوحشة التي بدت تحت المنحدر ، بعد مناظر الحقول اليانعة التي مررنا بها . وتبدو الصخرة العالية ، المتربعة في اسفل الهوة ، صعبة التسلق ، ولكنني متأكد من ان شخصاً يجيد تسلق الجبال ، لا بد ان يصل الى قمتها ، اما بالنسبة الى الاشخاص العاديين ، فان الامر صعب جداً ، الا اذا اتبع الطريق التي شقتها الطبيعة في الصخرة بحيث جعلت منها شبه درج . وقد قيل لي ان الجمال كثيراً ما تستخدم هذا الدرج لتصل الى الكلأ الوفير النامي على قمة الصخرة ، وقد رأيت فيما بعد جملاً يرتقي ذلك الدرج المفضي الى السماء .

واستدرنا لنغادر المكان ، فأسرع كبير القوم يتلفت حوله ، ثم امسك بعنزة قريبة منه ، وقدمها لنا كهدية وداع ، ولما رفضنا قبولها شاكرين له كرمه ، انزلها من بين يديه الى الارض ، وقد بدا واضحاً انه استاء من رفضنا هذا . وكذلك لاحظت ان سكان القرية احسّوا من جراء رفضنا الهدية انهم قد طعنوا في الصميم ، فهزت النسوة رؤوسهن بحزن ، وحتى العنزة ، كما بدا لي ، لم يرضها هذا الرفض . وانتهز احد الرجال المتقدمين في السن الفرصة ، فأمسك بيدي وقال بصوت حزين :

— « هناك شجرة حزينة جداً .. انها شجرة الذكريات الحزينة . فقد تسلقها صبي صغير ، قبيل وصولنا الى هذا المكان ، ولكنه لسوء حظه

سقط فوقع في الهوة » ، واشار الى اسفل الهوة ، وبعد انعام النظر ، استطعت ان ارى آثاراً للدماء ، وهنا قال المستشرق :

— « وماذا حدث للغلام ؟ »

فقال الرجل : « لقد دق عنق المسكين ! »

وساد الجو حزن ثقيل ، ولكنني استطعت ان ابدده الى حد ما ، عندما وزعت على الموجودين قطعاً من « الشوكولاته » ، حتى ان عدداً من افراد القبيلة المتحمسين ، تطوعوا لقيادتنا عبر الدلتا الصغيرة ، واشاروا لنا الى الطريق التي تفضي الى مكان عجيب آخر في وادي « خربات » . ومضينا قدماً في الوادي ، وقطعنا سلسلة التلال ، وسرعان ما وجدنا انفسنا امام بركة من المياه الخضراء اللون ، ولعلها مستنقع كبير . ومن المؤكد ان هذا المكان لم يشهد اي اثر من آثار الاعراب : فلا قوافل للجمال ، ولا خيام ، ولا اعتداءات ، ولا شيوخ ، او نساء محجبات ، او سيارات كاديلاك ، ولا صيحات حرب ، ولا ضجيج اعمال التنقيب عن النفط ، وجلسنا بين اكوام من اوراق الشجر وحولنا ادغال كثيفة ، واخذنا نجيل اعيننا فيما حولنا من مناظر ساحرة .

وعلى الرغم من ان تلك البقعة كانت تنعم بسلام شامل وجمال رائع ، بما حدا بالجنديين الى القاء بندقيتها جانباً ، كما حدا بي الى العبث بالماء ، فأخذت التقط بعض الازهار ، على الرغم من ذلك ، فاننا لم نكن وحدنا هناك . فقد لاحظت في التلال المشرفة على مكاننا وجود خليط من الاكواخ والكهوف ، تخفيها عن العيان اغصان اشجار وسعف نخيل ، وكانت هذه هي بيوت قبيلة القارا من سكان الجبال ، وتقع في منتصف الطريق بين السهول ومنطقة المراعي عند قمم التلال . ورأينا عدداً من

وجال القبيلة يقفون امام بيوتهم لمراقبتنا ، ثم تقدم منا عدد منهم ، وحيونا بطرق مختلفة ، ولكنها كلها تدل على الود . وكان هؤلاء الرجال يربطون شعرهم الطويل بحزام من جلد يدور حول الجبهة ، ويضفي عليهم لسبب او لآخر مظهراً شاذاً ، بدوا معه وكأن لونهم ازرق . وكانوا كذلك يرتدون دشداشات سوداء تغطي كامل اجسامهم الناحلة ، وبعضهم كان يكتفي بالقاء الدشداشة على كتفيه ويثبتها بحزام عند الوسط ، وفي الحزام خنجر ، وفي ايديهم بنادق قديمة او عصي غليظة ، وكانوا يتحدثون مع بعضهم بخشونة وبلغة غير مفهومة ، وبدا لي انهم يفهمون كلمة او كلمتين من اللغة العربية . وقد جلسوا حولنا يتأملوننا ونتأملهم ، وقد لاحظت ان الشباب منهم يتمتعون بوجه ذي تقاطيع متناسقة وجميلة ، وخاصة عندما يلتفتون جانباً « بروفيل » ، ومع ذلك فلا تظن انهم يتحدرون من القبائل البربرية العريقة ، التي كانت تعيش هنا في القرن الثامن عشر . والحقيقة انهم كانوا على جانب كبير من الوسامة ، ولكن عيونهم تنضح بالخبث ، ولقد قيل لي بأنهم يمكن ان ينقلبوا على من يأمن جانبهم .

وتوجد في « ظفار » اربع قبائل رئيسية يتألف افرادها من اناس كهؤلاء ، وكل قبيلة منها تتحدث بلغة مختلفة عن الاخرى ، وهي لغة لا تكتب ، ولا تفهم من قبل افراد القبائل الاخرى . وقديماً قيل ان اصل المصريين غير معروف ، ومثل هذا القول ينطبق على قبائل القارا الجبلية ، فمن هم ؟ ومن اين اتوا ؟ هذا ما لا يعرفه احد على وجه التحديد . ولهذه القبائل « شيفرة » خاصة بها ، يتخاطبون بوساطتها عندما يكونون بعيدين ، كما ان لهم تقاليدهم الخاصة ، فالمرأة لا يجوز لها ان تلمس ضرع البقرة ، على اعتبار ان ذلك لا يليق بها ، واحتراماً منها للماشية . والحقيقة ان

هذا الاحترام للماشية يتفق مع تقاليد قبيلة « دنكا » في السودان ، التي يعتقد افرادها بأن ارواحهم ، تحوّم حول مواشيهم وخاصة ابقارهم . وقد حدد بعض علماء الاجناس اصل قبائل القارا بأنها حامية اكثر منها سامية ، وردّوا اصلهم الى قبيلة « فوزّي — وزّي » ، التي تقطن على ساحل البحر الاحمر في افريقيا . ومن الجائز ان يكون هذا النسب صحيحاً ، ولكن الاصح منه هو انهم من تبقى من السكان الاصليين الذين كانوا يعيشون في جنوب شبه الجزيرة العربية ، وفي هذه الاطراف بالذات ، قبل ان تفد القبائل العربية من الصحراء .

ومهما يكن من امرهم ، فانهم ولا شك قوم غريبو الشكل والعادات ، وقد قابلنا ، ونحن في طريق عودتنا الى السهل ، عدداً منهم ، يقفون صامتين على جانب الطريق ، او يلقون حجارة على مواشيهم ، ليدفعوها بعيداً عن الطريق ، ثم رأينا اثنين من رجال القبيلة يؤديان الصلاة ، منهم مسلمون بالاسم ، فمثلاً هم يصومون شهر رمضان ، غير ان تعاليمهم الدينية الاخرى تبدو غريبة . وكلما رأيت احداً منهم يؤدي فريضة الصلاة اثناء مقامي في « ظفار » لم اره يبسّم وجهه شطر بيت الله الحرام في مكة ، بل نحو الشمس . وقد اوقفتنا ذات مرة امرأة عجوز لتقدم لنا حمامة ، ولم يكن معنا نقود ، ولذلك رفضناها ، ولكنها اصرّت على تقديمها بأي شكل من الاشكال ، فأخذناها واكلناها عند العشاء ، وقد علمت فيما بعد ان الحمام كأي طير آخر ، وكذلك الضباع والثعالب والدجاج وجميع انواع البيض ، محرم على هذه القبائل .

وهكذا مضت الايام في استكشاف هذه البلاد الغريبة . وبعد فترة من الزمن وردتنا انباء من الداخل ، حيث كانت الحملة قد جرّدت وفقاً

الخطة المرسومة . وقد جاءت معظم الاخبار بوساطة اجهزة اللاسلكي التابعة لسلاح الجو الملكي . وكان الضابط الشاب الذي يشرف على محطة الاستقبال ، يتلقى الانباء ويتوجها بعبارة « حضرة صاحب السمو . بعد التحية » ، ثم يرسل ما يرده من اخبار الى القصر ، وكذلك كانت تتسرب بعض الانباء من وراء الجبال بوساطة بعض الاعراب المسافرين .

وكان كل شيء يبدو سائراً على ما يرام ، فقد تقدمت قوة الميدان من « فهود » الى « نزوة » تحت ستار من السرية التامة ، وعندما وصلت الى قرية « فرق » اطلق احد افرادها طلقة واحدة فقط ، ولكن عندما ضربت القوة خيامها خارج العاصمة ، بدا لها ان قسماً كبيراً من المقاومة التي كانت تتوقعها قد تبخرت . ولم نكن حتى ذلك الوقت نعلم شيئاً مما حصل للامام وشقيقه ، ولا عن مدى تصميم اعوانهما على المقاومة في الجبال ولا ما حصل لقوة « باطينه » . وقد اعلن ممثل الامام في القاهرة ان التجنيد العام قد فرض على الامامة ، وقال في اذاعة وجهها الى ابناء قومه ان الله ورسوله امراهما بالوقوف صفاً واحدا في وجه قوى الاستعمار . ومع ذلك كانت الرسائل التي ترد الى السلطان مشجعة ، تحمل التهاني بالانتصارات . واعلن وزير خارجية السلطان من مسقط ان الحرب قد بدأت ، وان قوات السلطان قد زحفت لمقاتلة « الخائن » الامام غالب ، إمام عمان . واكدت السلطات البريطانية للعالم كله أن الامر لا يعدو كونه امراً داخلياً محضاً ، واخذت الامور تسير سيراً مرضياً ، واخذ السلطان يستعد للقيام برحلة النصر الطويلة ، دون ان يذكر لاحد في « سلالا » الى اين سيذهب في هذه الرحلة .

وحزمت حقائبي ، واعددت قلمي ، وفي الوقت المحدد بالضبط ، وفي

حمّارة القيظ ، وصلت سيارة اميركية « سبورت » صفراء اللون ، وتوقفت امام كوخي في المطار ، وحمل سائقها ، وهو زنجي ضخم الجثة ، حقائبي الثقيلة ، وكأنه يحمل دمية ، ونقلها الى السيارة التي انطلقت بنا في شوارع « سلالا » تثير وراءها سحابة من الغبار ، حتى وصلنا الى مدخل القصر ، وفتح العبيد لنا الباب ، ورأيت في الداخل عدداً من رجالات المدينة وزعماء القبائل يحتشدون في الساحة ، يتكئون على عصيهم او بنادقهم ، وفي اعينهم نظرات حماسة .

- ٣ -

« القافلة – بداية الرحلة – إلى التلال – وادي دوكا – عبر الصحراء القاحلة – الجمال – تقدم سريع – المستنقع – مزيد من الانباء السارة – الربع الخالي – فهود » .

قال السلطان ، وأنا اسير الى جانبه ونحن نهبط الدرج الى القاعة ، ووراءنا رهط من الموظفين : « لقد فهمت ... واعتقد بأنك ستجد هذه الخارطة مفيدة ، فقد أعدها المستر « برتران توماس » الذي كان وزيراً لدى والدي ... انه رجل مثير كما تعرف » .

وكانت سيارة اميركية ضخمة تقف خارج البوابة ، وقد تكدست فيها الأمتعة ، فوقف السلطان الى جانبها ، ونشر الخارطة ، ووقفت الى جانبه ، وكنت أطول منه بمقدار قدم او اكثر ، ورحت أتملى وجهه وهو يشير الى الطريق التي سنسلكها . وكان السلطان في الرابعة والأربعين من عمره ، ولكنه يبدو اكبر من هذا العمر ، نظراً لما يرتديه من ملابس ثمينة ،

ولحيته الكثيفة ، اما عيناه فتجلاوان سوداوان ، طويلتا الأهداب وذواتا نظرات جدية ، ورغم أن فمه رقيق وجميل إلا أنه بدا لي متهكماً ، وغالباً ما كان يتحرك بشكل مستقل عن بقية أقسام وجهه . لقد كان وجهاً أثرياً ، كأنك اذا نظرت اليه ، ترى صورة قديمة من الشرق ، هادىء الطبع ، وأعتقد بأن ذلك يعود الى ثقافته وكثرة اختلاطه بالغربيين ، ومع ذلك ما يزال جامداً كأنه تمثال ابي الهول . ولما رفع السلطان نظره عن الخارطة ، وتطلع الي ، كانت في عينيه نظرة تدل على الذكاء ، وقد لاحظت هذه النظرة فيما بعد ، ولكنها كانت تنم عن كبرياء وتعب من اعباء الحكم ، وكان علي ان اتعلم طريقة استعمال كلمتي « لقد فهمت » اللتين لا يكف السلطان عن ترديدهما .

ووقف سائق السيارة إلى جانبها يرتعد فرقاً ، ولست أدري لمَ ، بينما صعد السلطان الى المقعد الأمامي بهمة الشباب ، بعد ان شمّر أطراف ثوبه ، ورفع سيفه وأدخله قبله ، ثم جلس بعظمة ، وأخرج نظارتي شمس من جيبه ، اثبتها فوق أنفه ، ورتّب أوراقه ، ثم التفت الي وقال :

– « والآن يا مستر موريس ... اذا كنت مستعداً فأعتقد بأنه يمكننا البدء ... وستكون رحلة ممتعة على ما اعتقد ، وآمل ان توفر لك اسباب الراحة ، واذا كان لك أي شيء تحتاجه ، فأرجو أن تبلغه الى موظفي الذين تعرفهم بكل تأكيد » .

وانحنيت للسلطان ، فابتسم لي ، ثم تركته وغادرت الساحة الصغيرة الى الخارج ، حيث كانت سيارات المرافقين في الانتظار ، مستعدة لبدء الرحلة . وكانت هنالك ست سيارات اميركية اخرى ، كلها مليئة بالأمتعة والحقائب ، وكل واحدة منها تقل عدداً من العبيد الزنوج يرتدون « جرزايات » تشبه

تلك التي يرتديها صيادو السمك او تلك التي يرتديها بحارة الاسطول الملكي . وفي احدى السيارات ست عنزات صغيرة ، ومعلوم أنه قد كتب عليها ان تذبح أثناء الرحلة ، لتستقرّ في بطون القوم ، وكانت هذه العنزات المسكينة ، لا تعرف الى أي مصير تقاد ، شأنها في ذلك شأن الكثيرين من مرافقي السلطان ، بدليل أنها اخذت تطل برؤوسها الحلوة من جانب السيارة ، وتحرك آذانها باستمرار . وفي المقاعد الأمامية للسيارات الأخرى ، جلس مزيج عجيب من الوجهاء ، كل واحد منهم يحمل لحية كثة ويعتمر عمامة مختلفة عن عمائم الآخرين ، كما يحمل بندقية ويتمنطق بحزام فيه خنجر ، ورأيت في أعينهم نظرات ثاقبة . وكانت القافلة قد سيطرت عليها روح من الاثارة الشديدة ، ودارت محركات السيارات ، فتدافع العبيد يحتلون مراكزهم فوق الأمتعة والحقائب .

وعندما مررت باثنين من الزنوج ، هتفا قائلين : « من هنا يا صاحب . من هنا » وركضا عبر الساحة لمقابلتي ، ثم قال احدهما : « إن حقائبك قد وضعت في السيارة .. تفضل » ، وتقدمني عبر الساحة الى حيث كانت تقف السيارة المخصصة لي . وكان بابها مفتوحاً ، وسائقها يحدّق فيّ من الداخل ، فقفزت إلى مقعدي ، وصعد العبدان الى المؤخرة ، وفي تلك اللحظة بالذات دوى نفير سيارة السلطان ، فراحت السيارات تتدافع إلى الامام تدافع الكلاب ، وامتلأ المكان بدخان كثيف ما لبث أن اتجه نحو القصر ، وانطلقت بنا السيارات ، وسمعت العبدين يقرأان سورة « الفاتحة » بصوت عالٍ ، ويطلبان الى الله أن يبارك رحلتنا .

ولما تحركت سيارتنا اصطف الخدم على جوانب الساحة وراحوا ينحنون باحترام بالغ ، بينما اندفعت الاماء الى البوابة تودعن السلطان بعبارات

المودة والاخلاص . وقد سارت في المقدمة سيارة ترفع راية مسقط الحمراء ، والى جانب سائقها دليلنا وهو رجل بدوي ، ضئيل الجسم ، تلمع في عينيه نظرات ماكرة ، ثم سيارة السلطان ، وكنت أرى عمامته تقفز الى الامام والى الخلف ، وفقاً لوعورة الطريق ، وفي السيارة الثالثة ، جلس رجل مهيب الطلعة ، له لحية بيضاء ، اما السيارة الرابعة فكانت تقل زعيمين من زعماء القبائل التي تقطن الصحراء يجلسان فوق صندوق « المحول » وقد وضعا بندقيتيهما امامهما . وكان في السيارة الخامسة قاض متقدم في السن ، وتبعت بقية الركب ، وكانت السيارات تنطلق بسرعة هائلة كأنما تطارد عدواً خفياً ، وكنت أرى الراية تخفق بقوة ، أما العبيد فكانوا يتزأون من بعضهم بعضاً ويتقاذفون بالأسلحة ، اما العنزات الصغيرات فقد تجمعت معاً ، كأنها تريد ان تستمتع برفقة بعضها بعضاً . وهكذا ابتدأت رحلتنا .

وسألني سائق سيارتي ، وهو رجل بدوي من حضرموت : « الى أين نحن ذاهبون يا صاحب ؟ » .

فأجبته بقولي : « أتريد ان تفهمني بأنك لا تعرف وجهتنا ؟ » .

فقال السائق : « إن احداً منا لا يعرف ، ولم يسبق لنا أن عرفنا بوجهة السير مسبقاً عندما نذهب في رحلة مع السلطان ... هل نحن ذاهبون إلى الصحراء ؟ » .

فأجبته : « سنعبر الصحراء ، ولكنني اعتقد بأنه يحسن بي ألا أخبرك باكثر من ذلك ، هل سبق لك ان جئت الى هذه الطريق من قبل ؟ » .

فقال : « إلى الجبال ، وآمل ان نسافر بعيداً جداً »

فأنا اريد ان ارى كل مدن هذه المنطقة ، وكل جبالها والبحر الآخر .. ان لي زوجة شابة في عدن ، وهي لما تتجاوز ربيعها السادس عشر ، واعتقد بأنه يسرها ان تسمع عن كل هذه الاماكن المغايرة لتلك التي عرفتها .. اذن فسنعبر الصحراء ، أليس كذلك ؟ حسناً .. حسناً جداً ! »

وسحب من تحت مقعده رغيفاً من الخبز الجاف وقسمه نصفين ، وناولني احدهما . ورحنا نقضم الخبز بشهية ، ثم راح يغني اغنية لا نغم معيناً لها ، بينما جلست مطرقاً افكر في رحلتنا .

وفجأة صمت السائق وقال : « ان السلطان يحب الاسراع في السفر ، ولا يعرف الخوف الى قلبه سبيلاً .. انني ميكانيكي ماهر ، والله سيحفظنا .. هذه سيارة قوية ، فلا تخف ، سنصل بأمان باذن الله » .

فرددت قوله : باذن الله . ولكنني لم اكن مطمئناً ، اذ ان وعورة الطريق من جهة ، والسرعة التي ننطلق بها من جهة اخرى ، ثم فظاظة السائقين وخشونتهم ، كل ذلك كان يدعوني للحذر والتخوّف .

ومررنا بسهل جربيب ، وكنا نرى الاعراب منتشرين فيه ، ولكنهم اخذوا بمظاهر العظمة التي كانت ترافق الموكب ، فلم يطلبوا منا ان نصطحبهم معنا (وهم في العادة يوقفون اية سيارة لتقلهم الى اي مكان تذهب اليه) . وسرعان ما اخذنا نصعّد في التلال ، عبر تلك المنطقة الجرداء التي رأيتها من قبل ، والتي ليس فيها غير عدد قليل من الاشجار تنبت بين الصخور . وكنا نتبع الطريق التي شقها رجال شركة البترول عبر الجبال ، عن طريق ممر كيسميم ، حتى نصل الى مجرى مائي جاف يدعى وادي دوكا . وكانت الطريق هناك جيدة ، وان كانت تنحدر انحداراً شديداً

ثم تصعد الى اعلى ، وكنت اسمع رغم ضجة السيارات ، اصوات العبيد الذين يركبون في المؤخرة وهم يدمدمون ويهزجون فاعتقدت بأنهم (مثلي) قد سلّموا امرهم الى الله .

وعلى كل حال ، فان هذا التعذيب ، والتقدم الجنوني الذي يشبه الى حد كبير سباق تسلق التلال في بريطانيا الذي ألغي نهائياً لم يدم طويلاً ، اذ اننا بعد مسيرة بضع ساعات وصلنا الى ارض منبسطة تقع في احضان جبال « قارا » ، وخيل اليّ ان المنطقة تشبه انكلترا لولا عدم وجود الكنائس . وكان الحشيش ما يزال غير جاف ، وان كانت حرارة الشمس قد لوّحته فأحالت خضرته الى لون بني ، ورأيت بساتين كثيفة الاشجار تغطي الارض ، كما ان التلال تنحدر على بعد انحداراً رفيقاً ، حتى ليمكنني الجزم بأن تلك المنطقة تشبه مناطق انكلترا التي لم تطلها يد الافساد بعد ، بما يسمونه الوسائل العصرية . وقلت في نفسي انه بد وان يكون عثمان قد شعر بأنه في بلاده الآن وهو يجتاز هذه المنطقة . وشاهدت قطعان ماشية مكتنزة تشبه تلك الموجودة في « جيرسي » ، وكانت تسير متمهلة نظراً لثقلها ، وكما رأيت عدداً وافراً من الازهار الجميلة ، فطلبت من السائق ان يتوقف قليلاً ، بينما نزلت مسرعاً لالتقط بعض تلك الازهار الرائعة ، ومرت بنا السيارات التي كانت وراءنا ، وسمعت من فيها من العبيد يسخرون من العبيد الذين يركبون سيارتنا .

ولما عدت ببعض الازهار سألني السائق : « ولماذا تريد هذه الازهار ؟ أهي مفيدة لمكافحة نوع معين من المرض ؟ »

فأجبته : « لست أحسب ذلك ، ولكنني اعتقد بأنها جميلة ! »

فقال السائق : « انها لجميلة فعلاً ، ولكن اهالي القارا يأكلونها كعلاج لامراض المعدة ! »

فسألته : « أمتأكد انت ؟ »

فقال : « كل التأكيد .. ان اهالي القارا يعرفون كل شيء عن الازهار والنباتات .. انهم قوم على جانب كبير من الغرابة .. انهم كالحيوانات وأقسم بالله على ذلك ! انهم يشبهون الحيوانات الى حد بعيد » .

ورأينا في تلك اللحظة ثلاثة رجال من القبائل يقفون على جانب الطريق ، وضحك سائقي مسروراً ، وألقى اليهم بتحية فاحشة . وظل اثنان منهم لهما وجهان مستطيلان جميلان ، ظلا جامدين لا يتحركان ، بينما رفع الثالث عصاه وحركها في وجه السائق ، ثم لم يلبث بعد ان رأى زميليه لا يتحركان ان انزلها باستحياء كأنه قد ارتكب إثماً ، ولما اجتزناهم مددت رأسي من نافذة السيارة ، وألقيت نظرة ورائي ، فرأيتهم ما برحوا في مكانهم يراقبون تقدم الموكب بأعين ثابتة ، وهم ان كانوا في شك من امرنا ، فمبعث هذا الشك مفهوم لانهم يعيشون حياة حذر في الجبال ، والعداء المستحكم بين الاسر والافخاذ شيء مألوف ، ثم ان بعض هذه القبائل تعيش في قسم من الجبال ، وتتكلم لغة خاصة بها ، لا يفهمها غيرها ، والعكس على العكس ، فلا بد والحالة كذلك من ان يصبح الفريقان عدوين ، وكل هذا بالنسبة للقبائل الاخرى ، حتى ان افراد قبيلة ما قد لا يتورعون عن اطلاق النار على افراد قبيلة اخرى عندما تقع اعينهم عليهم ، او يندفعون – على الاقل – نحوهم بهراواتهم الثقيلة التي غالباً ما يكونون مسلحين بها .

وكنا نرى اكواخهم ، في بعض الاحيان ، منتشرة على جوانب التلال ،

وقد حاولت ان اتخيل الطقس هنا في ايام الموسم ، عندما تزداد الرطوبة ويكثر الضباب الذي لا اشك في انه كان يملأ اكواخهم ، وتذكرت الرطوبة في اعالي جبال هملايا ، حيث تختلط مناظر الضباب بمناظر الازهار والصخور والاشجار ، حتى تبدو وكأنما هي شيء واحد .

وغادرنا منطقة قبائل القارا ، بالسرعة ذاتها التي دخلناها بها ، فالطقس المتقلب الذي اختار ظفار فقط من بين ارجاء شبه الجزيرة العربية كلها لم يصل الى الناحية الشمالية من جبال القارا ، ولذلك فان جميع سفوح التلال والأراضي المحيطة بها تغيرت فجأة ، تماماً كما تتغير الأرض في الزاوية الشمالية الغربية من الولايات المتحدة ، حيث تفصل سلسلة جبال كاسكاد المنطقة الساحلية عن الأرض المليئة بالاشجار وحقول الحبوب داخل ولاية واشنطن . فاذا ما عبرت جبال كاسكاد فانك تنتقل من منطقة يحط المطر فيها رذاذاً الى منطقة تتألق فيها اشعة الشمس ، واذا ما عبرت جبال القارا ، فانك تنتقل من منطقة مروج الى منطقة قفراء . ففي لحظة ترى الأشجار والأبقار من حولك ، وفي اللحظة التالية تصبح المنطقة جافة خشنة ، مليئة بالصخور والتلال ... وقد عبرنا الخط الفاصل بعد الظهر ، لنرى على الأثر في تلك المنطقة وعند المنحدرات الشمالية سرباً من الغزلان ، وتوقفت السيارة التي تسبقنا فجأة ، وركع شيخان يحملان بندقيتين جديدتين ، فتليا صلاة قصيرة ، ثم رفعا البندقيتين ، وأطلقاهما ، ولكنهما لم يصيبا الهدف ، فضحكا ساخرين من نفسيهما ، ثم عادا مسرعين إلى السيارة ، ومرة اخرى استأنفنا السير بروح عالية ونحن نتسابق وراء السيارة التي تحمل الراية الحمراء وسيارة السلطان اللتين اختفتا على بعد منا ، وتركنا الجبال والسهل وراءنا ، فقد دخلنا مناطق الغزلان والصيادين

والقبائل البدوية .

وكنا نرى هنا وهناك ، بساتين تحتوي على أشجار ضخمة غريبة الشكل ، حتى ليخيّل للمرء بأنها زرعت قبل مليون سنة ، ويبدو أن هذا النوع من الاشجار لا ينمو الا في هذا الجزء المجدب من الجبال ، ولعل في طبيعة هذه الأشجار ما يجعلها تعيش دون مطر او ماء ، وأخيراً تبينت انها اشجار اللبان الدكر ، وكان الحكام في أيام ازدهار تجارة اللبان الدكر يرسلون المجرمين الى هذه المناطق ، مكبّلين بالسلاسل لجمع المادة الصمغية التي تفرزها هذه الاشجار ، اما الآن فان الطلب على البخور قل كثيراً ، كما ان جمع المادة الصمغية اصبح من اختصاص شركات خاصة . وتزور نساء القبيلة البساتين بين الفينة والأخرى ، ويجرحن جذوع الأشجار ، ويعدن بعد بضعة أيام ليجمعن المادة الصمغية من الجراح . ومعظم البخور يصدّر من ظفار في قوارب بطيئة ، ولم يسبق لمركب بخاري أن جاء الى سلالا . وعندما يريد السلطان بعث رسالة سريعة بطريق البحر ، فانه يدبر الأمر مع احدى ناقلات النفط التي تعبر مياه تلك المنطقة ، دون أن تصل اليها بالذات ، وبواسطة البواخر الصغيرة التي ترسو أمام معسكر التنقيب عن البترول ، ومثل هذه البواخر او الناقلات ، لا تهتم بنقل حمولة من البخور .

وكان البخور في يوم من الأيام يصدر بشكل رئيسي الى الغرب وإلى الشمال ، اي الى مصر والى سوريا . والحقيقة هي انني شخصياً قد مُنحت هدية من البخور خارج كنيسة القيامة في القدس ، وأكد لي مقدم الهدية ، ان البخور قد ورد من الساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية ، أما اليوم فان البخور يصدر بشكل رئيسي الى الهند ، حيث يحرق في معابدها .

ولم نتوقف لحظة واحدة طوال بعد الظهر ذلك اليوم ، بل واصلنا عبور التلال وسط سحب كثيفة من الغبار ، حتى وصلنا الى أول وادي دوكا ، ولم يكن في تلك المنطقة ما يستحق أن يرى سوى سهل مقفر عريض ، فيه عدد قليل من الأشجار ، ولم نشاهد أية حيوانات تمر من امامنا ، ولا طيوراً تحلّق فوقنا ، وكل ما كنا نفعله هو أن نقتفي آثار سيارات شركة البترول ، وكان الغبار يلفنا بغلالة سميكة ، وظللنا على هذه الحالة حتى رأينا على بعد أكواخاً وآلات تابعة لمعسكر البترول . وتوقفت سيارة السلطان ، وتوقفت السيارة الأخرى على بعد من سيارة السلطان ، ونزل العبيد ، وفتحوا الحقائب بسرعة فائقة ، وأخرجوا منها خيمة ، وقبل ان أمدّ ساقي لتليينها ، كانت الخيمة قد انتصبت ، وتلتها خيمة أخرى لكبار المرافقين ، وثالثة لشيخي القبائل واتباعهما ، ورابعة لي . ومرعان ما أضرمت النار ، وراحت أشباح سوداء تدور حولها حاملة قدوراً واواني للقهوة ، ووضع وعاء فيه ماء الى جانب النار والى جانبه وعاء فيه سمن ، وكنت أسمع عن بعد هدير محرك المولد الكهربائي في معسكر البترول ، أما وقد هدأت ضجة السيارات ، فلا أقل من أن ترتفع ضجة من كانوا فيها .

وسرت مبتعداً لأقدم احتراماتي للسلطان الذي كنت أرى جسمه الضئيل المكتنز ، ولكن المنتصب كالتمثال ، وهو يقف امام خيمته ، ولكنني فوجئت ، عندما وجدت علية القوم الذين يرافقونه يتقدمون نحوه ، في تظاهرة ، وهم يحملون بنادقهم . وبعد ان انحنوا أمامه احتراماً ، شكلوا شبه دائرة حوله ، وراح سائقي يعرفهم لي . وقال ان اكبرهم سناً هو ايضاً والٍ ويعمل في ظفار وهو يشغل منصب الممثل الأعلى للسلطان

في ذلك الاقليم ، أما الشخص صاحب الكتف التي ترتفع عن الكتف الاخرى فهو القاضي ومقره في سلالا ، وهو رجل سعيد لطيف المعشر ، اما الشيخان اللذان كانا يبدوان لي كأنهما توأمان ، فقد كانا زعيمي قبيلة يال وهيبه ، وهي قبيلة قوية الشكيمة اشتهرت بالكرم والشجاعة ، وهذه القبيلة تنتقل دائماً نحو الشرق ، وأفرادها على جانب كبير من الذكاء ، ولا تستقر هذه القبيلة ، الا في قرية تقع في طرف الصحراء ، حيث يقضي شيوخها فصل الصيف . وكان هنالك شاب تبدو عليه آثار المرض ، يعتمر عمامة هي في الواقع اكبر من رأسه ، وقد قيل لي انه ابن احد شيوخ القبائل ، وقد نسيت اسمها . كما كان هنالك عدد آخر من البدو الذين لا وزن لهم في المجتمع ، وكلهم يحملون البنادق ولا يكفون عن الابتسام ، وقد اندسّ هؤلاء بين اتباع شيخي قبيلة يال وهيبة .

ومن هؤلاء كانت تتألف جماعتنا ، وقد وقف الجميع هناك صامتين ملتفين حول السلطان الذي كان يهمس بكلمات الى الوالي في بعض الأحيان فيسارع هذا للاجابة عليها باحترام بالغ وعلى العموم ، كان الجميع يقفون كالاصنام ، سواء الوالي او القاضي او شيوخ القبائل او اتباعهم ، وحتى السلطان نفسه كان يبدو وكأنه تمثال ، وأخيراً صرف السلطان الجمع باشارة من يده ، فاسرعوا ينفضون من حوله ، وما ان ابتعدوا حتى تقدمت نحو السلطان الذي بادرني قائلاً :

— لقد كانت رحلة مشوّقة .. ألا تعتقد ذلك ؟ ربما كانت خشنة الى حد ما ، كما لا بد أنك لاحظت ... لقد شققت الطريق فوق الجبال بنفسي وذلك لمصلحة شركة البترول ... انها شديدة الانحدار .

فأجبته قائلاً : يبدو لي يا صاحب السمو اننا قد أمضينا وقتاً ممتازاً ،

كم ميلاً تعتقد بأننا قد قطعنا اليوم ؟..

فقال : لقد قرأت الرقم من عداد الاميال ، فقد بدأنا والعداد يشير الى ٤٤٦ وهو الآن يشير الى ٥٥٩ ، اي اننا قطعنا ... دعني احسبها .. نعم ١١٦ ميلاً .. أعتقد بأنني أحب السفر بسرعة ، وارجو ان تكون قد ارتحت في رحلتك .. ان جماعتي توليك شديد عنايتها ، أليس كذلك ! هل انت تعب كثيراً ؟.

فأجبته بقولي : لو أنني كنت تعباً بالفعل ، لما قلت انني تعب على الاطلاق .

فقال السلطان : فهمت .. يا مستر موريس ، وارتسمت على شفتيه ابتسامة عذبة ، ثم افترقنا ، ولما عدت الى المعسكر مرة أخرى وجدت ان حقائبي قد نقلت من السيارة الى الخيمة التي رتّبت بعناية ، كما وجدت فيها جماعة من حاشية السلطان يبتسمون وينتظرون قدومي ليدخلوا السرور الى نفسي .

واستقبلني ذلك العبد الذي كما بدا لي أنه مكلف بالعناية بأموري بشكل خاص وقال : تعال .. وانظر !.

ورأيت داخل الخيمة سريري المتنقل وقد رتب بمهارة ، ووضعت فوقه بطانيتان بشكل معقّد ، وقد ثبت فيما بعد ان هذا النوع من نظام ترتيب البطانيات أصلح الانظمة ، إذ تبقى الاغطية دون أن تنزلق عن الجسم اثناء النوم ، وفرشت أرض الخيمة بسجادة جميلة ، وفي منتصفها صندوق من البسكويت ، وضع الى جانب الآلة الكاتبة ، وكأن أحدهما اذا انفصل عن الآخر فقد قيمته واصبح عديم الجدوى . وعلّق معطفي الخاكي على عمود الخيمة ، كما كانت هنالك طاولة بديعة ، وضع عليها ابريق شاي

من الزجاج الصيني الازرق اللون وقدح وطبق .

وقال العبد وهو يبتسم : هل تريد الشاي أيها الصاحب ؟ ثم انحنى أمامي احتراماً وانسحب . والعرب قوم يعرفون دائماً متى يجب ان يتركوك وحدك ، وهكذا تناولت الشاي بهدوء وعلى انفراد كنت مشتاقاً اليه . وكان الاشخاص الذين يرافقونني في الرحلة يساعدونني كثيراً في تنفيذ عملي ، فيطلبون الى بعضهم بعضاً التزام الصمت المطبق ، اذا رأوني اكتب ، خلافاً لما كانت عليه الحال قبل قرن من الزمن ، عندما زار ريتشارد بورتون المنطقة وحاول استكشافها ، فقد ذكر انه كان يجد صعوبة كبيرة في استقاء المعلومات من الاعراب ، فاذا سجلها وجد صعوبة اكبر في تسجيلها وحفظها بعيداً عن متناول أيديهم اذ انهم كانوا يعتقدون بأن ما يكتبه ليس الا سحراً فيحرقونه او يمزقونه .

ومن عادة العرب ، اذا سافر احدهم ، ان يجعل مسيرته في اول يوم قصيرة ، حتى اذا ما نسي شيئاً مهماً ، تمكن من العودة واحضاره ، ويبدو ان السلطان اراد ان يطبق هذا التقليد ، رغم ان الوقت كان ثميناً . ولم نكن حتى تلك اللحظة قد عبرنا حدود عمان ، وان كنا قد وصلنا الى آخر الطريق ، لنعبر صباح اليوم التالي الصحراء المقفرة . وفي اليوم الاول كنا نسافر باتجاه الشمال ، اما في اليوم التالي فسنتحول الى الشرق : وقد امضيت ساعة او ساعتين في تلك الليلة في دراسة الطريق التي سنتبعها في الصباح ، على الخارطة ، وأتساءل عن مصيرنا . ولما وصل العبد يحمل طبقاً كبيرا مليئاً بلحم الماعز واكوام الارز ومعه كمية من الخبز المعجون بالسمن ، وابريقاً من الشاي ، ووعاءً يحتوي على فواكه معلبة . وقد اكلت كل ذلك شاكراً ، ثم اطفأت مصباحي واستغرقت في

النوم ، وقد اطفأ السلطان مصباحه بعدي ، كما أن نار المعسكر لم تنطفىء إلا في الساعات الاولى من الصباح .

وبعيد الفجر مباشرة تحركنا باتجاه جدات الحراصيص وسرنا ثلاثة أيام بسرعة فائقة دونما توقف ، إلا عندما يحل الظلام ، وقطعنا مسافة من تلك الصحراء المقفرة . ولم يسبق للأوروبيين أن عبروا هذه الصحراء ، إلا مرة او مرتين ، ومن طرق مختلفة ، ولم تعبرها أية سيارة مخترقة إياها من طرف إلى طرف . وفي صباح اليوم الأول من سفرنا رأينا آثار عجلات سيارات ، فعرفنا ان المنقبين عن البترول قد مروا بهذه الطريق ، بعد ان قطعنا وادي دوكا بفترة طويلة ، رأينا على بعد ما يشبه تمثالاً عالياً منتصباً في وسط الصحراء ، وبعد ذلك لم نجد أي أثر للحياة على الاطلاق ، سوى سرب من الطيور كانت تحلق مسرعة ، وكأن صياداً يطاردها ، وسوى حجل ضال واحد لا غير .

وكانت جدات الحراصيص عبارة عن سهل فسيح مليء بالصخور ، لا ماء فيه ، ويقع ما بين الجبال الساحلية والربع الخالي ، وتخترقه عدة جداول جافة لا ماء فيها ، وتنبت فيه بعض النباتات الشائكة ، وتنقلب صفحة الأرض فيه أحياناً الى كتل حجرية ضخمة ، بحيث يتعذر عندها السير . وقد رأينا لمسافة مائتي ميل او اكثر إمارات تدل على وجود بشر ، وفي الواقع لم يكن هناك سوى قبيلة بدوية فقيرة ، هي على الغالب ليست عربية وتشبه قبيلة القارا سالفة الذكر ، وكان أفرادها يتنقلون على غير هدى في هذه المتاهة الكبيرة ، ويتكلمون لغة خاصة بهم ، ولم يكن يعرف أي شيء عن وجود هذه القبيلة في جدات الحراصيص حتى سنة ١٩٣١ ، عندما اكتشفها برتراند توماس اثناء قيامه باستكشاف المنطقة .

وكان تقدمنا على وجه العموم سريعاً ، بل يمكن القول بأننا كنا نسير بسرعة الاعصار . اما السيارات السبع فكانت تتراقص على أرض ذلك السهل الفسيح ، وفوق الرمال ، بينما كان العبيد يمسكون بسقف كل سيارة ، حرصاً على حياتهم الغالية . . أما الراية فقد كانت تخفق بشدة وتفزع العنزات ، التي قل عددها ، فتلتصق بقدور الطهو وهي مغمضة أعينها . ولم يكن احد لينتظر غيره ، فاذا ما وصلنا الى أرض واد كنا نحبس أنفاسنا ، ونصلي لله كي يخرجنا منها سالمين ، وإذا حدث ان تأخرت إحدى السيارات فما عليها إلا أن تتبع آثار السيارات التي سبقتها ، ويبدو أن دليلنا البدوي الحاد النظرات ، كان يعرف الطريق جيداً . ولم تكن أية عقبة لتعيق تقدمنا ، وكنا في بعض الأحيان نتمسك بمقاعدنا اثناء انحدار السيارة ، خوفاً وهلعاً ، وتتوتر أعصابنا ، حتى نتخلص من الكابوس ، وإذا ما جئنا إلى رمال قاعة ، كنا نعبرها بأقصى سرعة ، بينما يكاد المقود يفلت من يد السائق لكثرة ما يتحرك بين يديه . وفي الواقع كانت مفيدة هذه العملية ، عملية تحريك المقود ، ولكن اذا حدث أن وجدنا سيارتنا تغوص في الرمال ، وكان هذا يحدث احياناً ، وإذا ما فشلت كل المحاولات لإخراجها بوساطة المحوّل ، كان العبيد ينزلون الأمتعة ، ثم يدفعون السيارة من الخلف ، وهم يطلقون أصواتاً توقظ الموتى ... وحدث في إحدى مثل هذه المناسبات انني نزلت من سيارتي ، وألقيت نظرة على ما حولي ، فوجدت السيارات السبع وقد غاصت عجلاتها في الرمال ، على أبعاد متفاوتة ، وكل سيارة وراءها ركابها من العبيد يدفعونها بكل ما لديهم من قوة ، ومتى تم إخراج السيارات من الرمال واحدة إثر الأخرى ، كان العبيد يتراكضون وراءها كالشياطين ، ويتعلقون بها وهي ماضية قدماً ، حتى يأخذوا أماكنهم من جديد .

ولم نكن نتوقف لنأكل ، او لنفحص عجلات سياراتنا ، أو نستلقي قليلاً في ظل السيارات ، كما يفعل الجنود او سائقو سيارات اللوري ، ولكن القافلة كانت تتوقف عند الظهيرة لتأدية فريضة الصلاة ، وبعد انتهاء الصلاة كان أفراد الجماعة ينتشرون في الصحراء لقضاء الحاجة ، وكنت أرى الزنوج بثيابهم الزرقاء ، والبدو وهم يضعون بنادقهم إلى جانبهم وهم يرتدون ثيابهم الفضفاضة ، والقاضي وهو يحاول ان يتحسّس عظامه ، والسلطان وقد ارتدى سربالاً ملوناً فضفاضاً للسفر . وفي الواقع كان منظرهم أخّاذاً ، وهم ينتشرون حولي بملابسهم المتعدّدة الألوان ، ثم وهم يصلّون على الطريقة التي أمرهم بها الدين الاسلامي ، وعندما يرتفع نفير سيارة السلطان ، كان من السار أن أراهم وهم يعودون مسرعين ليقفزوا الى سياراتهم بأساليب بدائية ، وطرق متباينة . وقد لاحظت أن شيخي قبيلة يال وهيبة هما أسرع الكل في احتلال مكانيهما في السيارات ، فقد كانا يتحركان بسرعة ويمشيان هرولة . وكان يحدث في بعض الأحيان ، اثناء مثل هذه الوقفة القصيرة ، أن يحضر لي الخدم شيئاً من البسكويت ، وحتى إبريقاً من الشاي ، وهذه الاشياء ترسل من قبل السلطان مع تحياته .

وفي مثل هذا الارهاق والعرق ، كانت الساعات تمر بسرعة ، وكنا نبدأ رحلتنا كل يوم مع الصباح الباكر ، وننهيها عندما تغيب الشمس ، وإن كنا نتوقف أحياناً لأسباب طارئة ، ففي ذات مرة سقطت احدى العنزات ، فتوقفنا لاسترجاعها ، وأحياناً تنفجر إحدى العجلات فنتوقف حتى يصلحها العبيد ، او يسقط شيء من المتاع او قربة الماء ، وعلى كل حال ، فان باستطاعتي القول انه ما دام كل شيء من بزوغ الفجر حتى

مغيب الشمس يجري بسرعة أكثر من السرعة المقررة ، فقد كان لجميع حالما ينتهي اليوم يشعرون بالارهاق الشديد .

وكان السلطان يعقد مجلسه كلّ مساء . فيقف بين العرب الذين يرتدون للمناسبة أفخر ما لديهم من ملابس . وحدث ذات مرة ان تقدم أحد افراد قبيلة بال وهيبة بشكوى مفادها أن الامتعة الموضوعة في السيارات مكدسة إلى علو كبير ، ونظراً لسرعة التي تنطلق بها السيارات ، فانه يخشى ان يسقط كما سقطت العنزة . وقال ان السفر بمثل هذه السرعة لا يخلو من الخطر ، واستمع السلطان الى شكواه ، ولكن ما الذي يتوقع من السلطان ان يفعله ازاء هذه الشكوى ؟ أيريده ان يستغني عن الامتعة ؟ أم تراه يريده ان يلغي الرحلة ؟ ان كل ما يستطيع السلطان ان ينصحه به ، هو ان يتمسك جيداً بجوانب السيارة ، او ليس هـذا هو أفضل الحلول ؟. وقد ضحك البدو قليلاً ، ثم عادوا الى حلقتهم الصغيرة ، حيث جلسوا على الأرض وبنادقهم الى جوانبهم ، وكانوا يمضون الوقت في الثرثرة ، اذ ليس لهم من عمل يؤدونه سوى الجلوس والحديث وتطارح الملح ، حتى يعدّ العبيد الطعام ، فيملأوا صحافهم الكبيرة المصنوعة من الخشب ، ويأكلوا .

وكنت في بعض الاحيان أنضم الى حلقة البدو ، كما أن القاضي كان ينضم إليها احياناً . وأذكر أنه حدث ذات ليلة ان جاء القاضي الى حلقة البدو ، فأخذوا يسألونه عن الاحداث في الداخل ، وسأله أحدهم :

– يا سيدي القاضي ... ما الذي حصل للإمام ؟

– ليس هنالك امام !

– ليس هنالك امام ؟ ماذا حصل له ؟ هل مات ؟ أين هو ؟

– ليس هنالك إمام بل هنالك السلطان وحده ، الذي نزلت عليه بركات الله .

فقال البدوي : شكراً لله . وردد القاضي الشكر لله .

وللمرة الثانية ، صادفنا ذلك الجمل الضال ، ولقد استغربت ماذا يفعل هذا الحيوان في مثل هذه الارض القفراء التي لا أثر للحياة فيها ، وعجبت لقدرة هذا الحيوان على الصبر . وقد أجريت ذات مساء تجربة فأنزلت العنزات وتركتها تسرح ، وبعد فترة شاهدتها كما لو أنها ترعى عشباً ، فأسرعت إلى هناك ، ولكنني لم أجد غير الرمال . وكنا نحمل معنا ما يكفينا من الماء لمدة ثلاثة ايام ، فهل ستتمكن من اجتياز هذه الصحراء اللعينة قبل ان ينفد الماء ، ولما سألت أحد البدو عن الجمل ، أكّد لي بأن اكثر الجمال في العالم صبراً هي جمال جنوبي شبه الجزيرة العربية .

وعندما حاول الاميركيون في سنة ١٨٥٨ تجربة قابلية الجمل للعيش في ولاية أريزونا ، اختاروا مجموعة من جمال هذه الزاوية من شبه الجزيرة العربية ، ورغم أن نتيجة هذه التجربة لم تكن ناجحة ، إلا ان حصيلتها كانت خرافة تزعم بأن ناقة عمانية ما تزال تجوب بعض المناطق في الصحراء الاميركية . وقد سجل المستكشف الكبير هـ. سانت جون فيلبي في مذكراته أن الجمال العمانية قطعت مسافة ١٨٠٠ ميل في تسعين يوماً ، وكذلك سار ويلفرد ذي سيغر ذات مرة مسافة ١١٥ ميلاً في ثلاث وعشرين ساعة على ظهر جمل ، من شاطىء باطينة في مسقط ، وأكد لي احد البدو من مرافقينا أن بامكانه ان يركب جملاً من سلالا الى فهود والمسافة بين البلدين تبلغ حوالي ٦٠٠ ميل ، على ان يقطعها في غضون ثمانية أيام . ووصف ليوناردو دي فينشي الجمل ، بأنه اكثر الحيوانات

احتمالاً وقال إنه قد يقطع مسافة الف ميل ، إذا كان ذلك ضرورياً ، بحثاً عن نافة .

ومما لا شك فيه ان جملنا الضال يستطيع ان يقطع هذه المسافة في الصحراء المقفرة ، ولكنه قد يجد الرمال تثقل كلما اوغل في الصحراء ، وبما انه يعيش في مثل هذا المكان المقفر ، ونظراً لان الفصل كان شتاءً ، فإن الجمل يستطيع البقاء دون ماء مدة قد تزيد على شهر ، ولا عجب فالجمل يستطيع ان يصبر على العطش في اشد ايام الصيف حرارة مدة اسبوع ، وهذه المقدرة المذهلة تعود إلى حد ما إلى تركيب جسم الجمل بشكل لا يسمح بتبديد الماء عن طريق التبخر ، ومن المعروف ان الجمال لا تستطيع ان تختزن الماء بمثل هذه المقادير ، ولكنها تستطيع تجنب التبخر بشكل رائع . فهي مثلاً لا تعرق الا نادراً — وقد قيل بأن اديمها لا مسامات له ، وعندما تسير ، فانها تقفل اشداقها اقفالاً محكماً ، حتى لتبدو وكأنها تحاول إخفاء اسنان خربة ، ولكن الحقيقة انها تفعل ذلك كي تتجنب التبخر ، وفي الوقت ذاته ، فانها تعرف ان في ابقاء جلودها باردة اكبر قدر ممكن ، ما يساعدها على إقلال حاجتها لشرب الماء ، ولا يعرق الجمل مطلقاً إلا عندما تصل درجة حرارة جسمه الى ١٠٤ فهرنهايت ، وعندما تمر قافلة من الجمال بالقرب من الساحل الضحل للبحر الاحمر في مصر ، فانها غالباً ما تضطجع قليلاً في مياه البحر لترطب جلودها ، حتى ولو كان اليوم ليس حاراً جداً . كما ان الجمال تستطيع السير وهي مرتاحة مدة يومين او ثلاثة ايام دون طعام ، اذ ان لها نظاماً خاصاً في الهضم ، وقد رأى احد اصدقائي جملاً خارج بئر نفط في البصرة ، يشرب النفط من صفيحة .

ولا مشاحة فان البدو يدركون كل هذه الاشياء ، وهم لذلك يقدرون الجمال ويحترمونها . وقد وصف احد المستشرقين البدو بأنهم طفيليات الجمال . والغربيون الذين يمرون بشبه الجزيرة العربية ، يتأثرون كثيراً من حدب الاعراب على حيواناتهم ، ويلاحظون انه إذا فقد الكلأ في مكان ، انتقل الاعراب كلهم مع مواشيهم مسيرة ساعات وسط مصاعب ومتاعب ، حتى يجدوا مكاناً يصلح للرعي . والجمل بالنسبة للبدوي ، اولى بالرعاية من ذمي ضال . ومن ناحية اخرى ، فان الجمل الميت ربما كان مفيداً ايضاً للبدوي ، فهو يشرب عصارته المعوية ، كما ان لحم الجمل اذا ما اضيفت اليه البهارات يمكن حفظه لمدة من الزمن .

ومهما يكن من أمر ، فانني لم ار تصميماً ممتازاً لحيوان ، يماثل تصميم الجمل العربي ، لكل ذلك لا بدع اذا ورد ذكره في القرآن الكريم .

وكان تحركنا صباح كل يوم يتم وسط جو من التوتر ، فالأمسيات في ذلك المكان شديدة البرودة ، الى درجة انني كنت انام في ثيابي ، بعد ان اضع فوق غطائي معطفي ، وكل الملابس الاخرى التي استطيع الوصول اليها ، ومع ذلك ، فقد كنت استيقظ كل صباح وانا أرتعد برداً ، لارى الاعراب منهمكين في الاستعداد للسفر متى أطل الفجر ، وكنت اسمع وقع اقدام خارج خيمتي وقعقعة اوانٍ نحاسية ، واصوات اناس يتحدثون همساً ، ثم تشعل النار ، ولما تبزغ الشمس ، يصلني طعام افطاري ، ويتألف من الشاي والبسكويت ، وشرائح من لحم الماعز مقلية بالسمن ، وبعد ذلك ، لا أكاد اعرف كيف يهدم المعسكر ، وتطوى الخيام ، غير أن العبيد كانوا ينقضون على الخيام كالجراد ، كل

عشرة منهم على خيمة ، هذا يزيل الاوتاد ، وآخر يرفع العمود ، وثالث يطوي الخيمة ، ورابع يجمع الحبال وخامس يجمع الفراش ... وهكذا . وقد رأيت البدو وهم يجلسون في دائرتهم المعتادة ، عندما فوجئوا بخيمتهم تنتزع من فوق رؤوسهم ، ولما غادرت خيمتي ، كان القاضي خارج خيمته يسوّي عمامته ، وعدت الى خيمتي لاكمل ارتداء ملابسي ؛ ولم أكد حتى نجوت باعجوبة من كسر مؤكد في الرأس ، اذ ان العبيد في تلك اللحظة قرروا هدم خيمتي دون سابق انذار ، وطوى احد العبيد سريري المتنقل ، وحزم آخر حقائبي ، ونقلت آلة التصوير ، ومذكراتي ، وخرائطي الى السيارة . وفي اللحظة التالية ، كانت السيارة الاولى قد أدارت محرّكها ، ووضع ما تبقى من العنزات في مؤخرتها فراحت تثغو باستمرار ثغاءً مزعجاً . ووضعت الحقائب في السيارات وربطت ، وامسك العبيد ببنادقهم ، ولما دوّى نفير سيارة السلطان في الجو ، اختفوا وكأن ذلك تم بفعل ساحر ، ورأيت الجميع يتحركون نحو سياراتهم .

والحقيقة ان السلطان كان يستمتع بكل لحظة من لحظات رحلته ، فهو المصمم والمشرف على الرحلة ، وهو يعرف المسافة التي سنقطعها جيدا ، كما يعرف الموقع الذي سنصل اليه ، ومعدل سرعتنا . وكان حريصاً كل الحرص على ان يحفظ ادواته الخاصة في كيس من البلاستيك ، وهو يحمل في هذا الكيس ، نظارة مزدوجة ، وميزاناً للحرارة ، وميزاناً لقياس الارتفاع ، وبوصلتين ، ولا ينسى ان ينشر خارطته أمامه ليتابع مراحل الرحلة أولاً بأول .

ولكن هذه الادوات ما كانت لتعجب الدليل البدوي الذي كان يرى فيها لعب أطفال . وذات مساء سمعت السلطان يتحدث الى الدليل بلهجة

لا يمكن ان تكون إلا توبيخاً ، وما إن فرغ السلطان من حديثه ، حتى بدا واضحاً ان قيادة ذلك البدوي للقافلة أصبحت على كف عفريت ، ولم يلبث أن هرول مسرعاً ككلب مطارد .

ولما التفت السلطان إلي قال : « لقد اخطأ الطريق اليوم ، ففي ساعة ما من بعد ظهر اليوم ، كنا في الاتجاه الخاطىء الطريق التي يجب أن نتبعها ، وكان عليّ أن الفت نظره إلى ذلك ، فاذا لم يكن قادراً على قيادتنا في الطريق الصحيح ، فما الفائدة من اصطحابه معنا ! » .

وبدا أن الدليل لم يشف من الصدمة التي وجهها اليه السلطان ، تلك الصدمة التي اثبتت بعد كل شيء ، أن وجوده ليس بالأمر المهم ، كما كنا نعتقد ، وقد قيل لي فيما بعد إنه دخل في خدمة السلطان بوسائل غير مشرّفة ، ومبيتاً نيات غير أمينة . وقيل لي أيضاً انه كان يعمل في التهريب ، فكان يهرّب البضائع من الشاطىء إلى المناطق الداخلية ، الأمر الذي اكسبه خبرة بالمنطقة ومسالكها ، ولما اعتقل ، شاء السلطان أن يستفيد من مواهبه الاجرامية ، بدلاً من أن يلقي به في غياهب السجن .. يا للرجل المسكين ! لا شك في أنه ظن ذلك المساء أن الحديد بانتظاره ليوضع في يديه ورجليه ، ولكنني عندما تركت شبه الجزيرة العربية كان ما يزال يشغل منصب دليل الصحراء ، ويعمل في خدمة السلطان ، وكان ما يزال قادراً (مثل شهرزاد) على تأجيل نهايته .

أما العنزات ، فقد راحت واحدة بعد الأخرى ، تدفع غرامة وجودها بيننا ، كما أن ما لدينا من تموينات أخرى أخذت تتناقص ، ولكننا رأينا ، بعد ثلاثة أيام من هذا السير الأرعن ، وعلى بعد منا ، نقطة سوداء كبيرة ، ولا بد أن يكون الدليل قد شكر الله على رحمته ، إذ

أن تلك النقطة السوداء ، لم تكن سوى مجموعة من المستودعات أعدّت خصيصاً لنا هناك ، وكانت ضرورية جداً بالنسبة إلى استمرارنا في الرحلة .

وكان رجال شركة النفط الأميركية نشطين في الطرف الشرقي من جدات الحراصيص ، ولكننا كنا قد اجتزنا الحدود من ظفار إلى عمان ، وهي حدود أوضحت بجلاء من قبل السلطان نفسه ، وفي هذه النقطة كان امتياز التنقيب عن البترول ممنوحاً لشركة بريطانية ، وكان الباحثون عن النفط في فهود يرسلون قسماً من تموينهم إلى هذه النقطة بوساطة الطائرات ، ولكنهم يشحنون القسم الأكبر منها عن طريق ميناء في قرية تقع على الساحل الجنوبي وتدعى دوقم ومن هناك حتى منطقة البترول عبر طريق شقّوه في الصحراء ، وهذه الطريق ، هي التي كنا على وشك الوصول اليها ، ومنها سنتجه شمالاً لندخل قلب الأراضي العمانية . وكان السلطان قد رتّب أمر وضع كميات من البنزين والماء هناك ، لنتزود بها ، ولما وصلنا إلى هناك ، رأينا شيخاً عليه سيماء الموظفين الرسميين ، يجلس الى جانب كومة من صفائح البنزين والماء ، ولست أدري تماماً كم مضى على هذا الرجل وهو بانتظارنا ، ولكنني لا أشك في أنه رآنا على بعد أميال ونحن نتقدم باتجاهه ، ولكننا باغتناه ، ولم يكد يجد الوقت الكافي للوقوف واعداد نفسه لأداء التحية أو ترتيب ملابسه استعداداً لزيارة السلطان .

وتوقفنا ، وسط التظاهرة المألوفة ، ونزل العبيد وأسرعوا لتأدية ما يترتب عليهم من أعمال . فملأوا خزانات السيارات بالبنزين ، حتى طفحت (والبنزين تقدمة من شركة النفط ، اذ أن السلطان لا يدفع ثمناً له على

الاطلاق) وملأوا قِرَب الماء المصنوعة من جلود الماعز ، واصطف الجميع أمام السيارات ، ونظراً لوجوه الكثير من الماء لم يعد أحد ليبالي فيما إذا سُكب قدر منه على الارض ، كما ان البدو أخذوا يغسلون وجوههم ، كما أنني حلقت ذقني ، مستعيناً بمرآة السيارة ، وراح سائقي وغيره من المرافقين ، يشجعونني بما يروونه لي ومن قصص مسلية ، ولما انتهيت من الحلاقة ، بحثت عن السلطان ، ولكنه كان قد ابتعد عن سيارته ليجتمع بذلك الموظف القادم من دوقم ، ورأيتهما يجلسان على بعد متربّعين في ظل شجرة عارية الاغصان ، لا أثر للحياة فيها . وكان أحدهما يجلس في مواجهة الآخر ، وبينهما مسافة قليلة من الأرض ، وكانت اشعة الشمس تسقط على مقبضي خنجريهما الذهبيين فيتلألآن . ورأيت احد الخدم يعتمر عمامة حمراء يسرع نحوهما حاملاً لهما القهوة ، وفيما عدا ذلك ، ظلّ السلطان وذلك الموظف وحيدين ، ومنهمكين في حديث طويل . وخيل اليّ ، وهما في جلستهما تلك ، ولحيتيهما الكثتين ، وهدوئهما الشامل ، انهما أشبه ما يكونان بتمثالين فارسيين ، لا ينقصهما الا ابريق الخمر ، وما لذ وطاب من المأكولات .

وكان ذلك الموظف قد احضر معه أخباراً سارة ، فقد سقطت « نزوة » ، دون إطلاق طلقة واحدة ، ولما رأى الإمام أن اتباعه غير مستعدين للقتال تسلّق سطح قصره ونزل بوساطة حبل الى الطرف الآخر ، وغادر المدينة الى الجبال على ظهر حمار ، اما أين هو الآن فأمر لم يعرف بعد . وكذلك انسحب شقيقه « طالب » بعد ان قاد مقاومة ضارية عند الناحية البحرية من الجبال ، ودخلت قوات السلطان الى نزوة ، وهي ترابط الآن في سهل خارج اسوارها . أما نبأ وصولنا المسرحي ، فلم

يكن قد أذيع بعد ، اذ أنه ما من أحد يعلم ما تخبئه التلال من مفاجآت ، ولا ما اذا كان الامام بعد العدة للقيام بهجوم مضاد ، ولكننا كنا ، كما قال السلطان ، قادرين على التوغل في البلاد الداخلية بثقة واطمئنان . وكلما أسرع السلطان بالوصول الى العاصمة كان ذلك أفضل .

وقد واصلنا السير مدة طويلة بعد حلول الظلام في تلك الليلة ، واستأنفنا السير مع اول إشراقة من فجر اليوم التالي ، وكانت الطريق تمتد فسرنا بسرعة جنونية ، مثيرين من وراءنا سحباً من الغبار الكثيف كان من تأثيره ان وجوه العبيد أصبحت ذات لون رمادي ، ثم لم يبق بارزاً من وجوههم إلا أعينهم وأسنانهم ، عندما يبتسمون او يتحدثون . وكنا ننطلق بسرعة فائقة ، وتصدر عن سياراتنا ضوضاء مزعجة ، حتى أنني لم اسمع صراخ « بوب سويرز » الذي كان يجلس على سقف السيارة ، ولا رأيت زجاجة « البراندي » التي تدلت الى جانب فاذني ، وسرعان ما رأينا على بعد ، سلسلة من الجبال زرقاء اللون ، وفي هذه الأثناء كانت سياراتنا تخترق الصحراء مارة بعدد من الكثبان الرملية ذات اللون الذهبي البراق . وقد طلبت الى سائقي ذات مرة ان يتوقف ونزلت لأغوص حتى ركبتي في رمال احد تلك الكثبان ، محاولاً الصعود الى قمته . وكنت ارى الى يساري أعمدة الغبار المرتفعة من تحت عجلات السيارات الأخرى ، ومن ورائها كانت تبدو سلسلة من التلال . غير أن الجهة الغربية كانت خالية تماماً ، لقد كنت أقف على اول الربع الخالي ، حيث تنتقل الرمال باستمرار متحيرة من مكان إلى آخر ، وادركت بأنه لم يعد يفصل بيني وبين مكة المكرمة أي شيء سوى الرمال التي لا

تكف عن تغيير مكانها . وتذكرت بشيء من الحزن أولئك المستكشفين البريطانيين الذين ألقوا بأنفسهم في هذا المكان المقفر ، وليس من رفيق لهم سوى جمالهم وبعض الأدلاء من الأعراب .

وهناك على بعد غير قليل الى الشمال الغربي ، توجد بقعة بيضاء ، تبدو وكأنها حوض ملح ، وتدعى « ام السميم » ولا يعرف الطريق المأمون عبرها سوى قبيلة هورو البدوية ، وهناك يعيش كثير من البدو الفقراء مع مواشيهم . ولم يكن منظر تلك البقعة بالمنظر المريح ، وعدت الى سيارتي وانا في غاية الشوق الى ابريق من الشاي ، وما هي الا لحظة ، حتى كنا نستأنف السير ، محاولين اللحاق بموكب السلطان .

ورأيت إذ ذاك آثاراً قليلة تدل على الخصب ، منتشرة من هنا وهناك في السهل ، كما رأيت مزروعات قليلة تحمل ازهاراً حمراء ، وشقت ذبابة طريقها الى داخل السيارة ، ولم ألبث ان رأيت هنا وهناك بساتين متنوعة الاشجار ، كما رأيت آثار المياه ، ومن أحد مصادرها ، كانت تطير عصافير بنية اللون . وقد قيل لي بأن أحدهم قد اصطاد قردة من هذه المنطقة ، فأيد هذا القول مزاعم علماء الحيوان الذين ذكروا بأن القردة تعيش في بعض مناطق شبه الجزيرة العربية . وكنت أعرف بأن الاسود ظلت موجودة في العراق حتى سنة ١٩٣٥ ، كما ظلت النعام في شبه الجزيرة العربية إلى ما قبل أربعين سنة ، والفيلة في أسوان حتى القرن الماضي .

وأخيراً وصلنا الى مكان مأهول ببني البشر ، وكان أول غريبين رأيناهما بعد مسيرة اربعمائة ميل فضلاً عن موظف دوقم اثنين يرتديان

اسمالاً مهلهلة ، خرجا من بطن الوادي ليرياننا ونحن نمر ، ولما حييناهما ، ردا التحية بفتور ، وبعد نصف ساعة مررنا بسيارة نفط كبيرة واقفة إلى جانب الطريق ، وتقدمت منا سيارة لاند روفر ثم استدارت ، وقادتنا ، وبعد حلول الظلام بفترة طويلة لاحت لنا انوار خافتة منبعثة من فرهود فتأكدنا اننا اجتزنا « جدات الحراصيص » وأصبحنا على بعد ستمائة ميل من سلالا ودخلنا منطقة الجبال المنيعة .

— ٤ —

« في منطقـــة النفط — معسكر فرهود — امكانات مخيفة — كيف يمكن تجنبها » .

تكاد تكون الامكنة التي تشغلها شركات البترول من الاماكن المثيرة عادة ، والتي تؤسس دائماً لكي توفر نوعاً من السحر ، يمكنك ان تلمسه سواء في لوس انجيلوس ، حيث المقاصف العامرة ، او في مكاتب لندن حيث يمكنك ان تدخن سيجاراً فاخراً ، او في حقول النفط في العراق ، حيث يقدم لك نادي الشركة حماماً تزيل بمائه ما تراكم عليك من أملاح ، ويقدم كذلك فرشاة اسنان جديدة ملفوفة بورق السيلوفان ، وحتى في ذلك النادي الذي انشأته شركة النفط الانكلو ايرانية في عبادان ، حيث يسألك الخدم اذا ما طلبت سيارة تكسي ما إذا كانت لغرض رسمي او اجتماعي . ان لهذا السحر الذي يكتنف مكاتب شركات النفط أثره الكبير في حياة العاملين في ميدان النفط ، فشركات البترول لا تملك المال فحسب ، بل وتعرف كيف تنفقه . فأنت تجد مجلة الشركة ، ثقيلة الوزن ، مليئة بالصور الملونة ، ومطبوعة على ورق صقيل ، وكذلك فان طائرات الشركة

تنقلك الى حيث تشاء بكل سرور ، والكتاب ومنتجو الافلام والمصورون ، يملأون الارض ضجيجاً في سبيل الحصول على مادة او لقطة ، تبدو على الغالب لا علاقة لها بصناعة النفط . وشركات البترول تفتش عادة عن كل ما هو طريف ، وقد نقلت صورة لمركبي نهر المسيسيبي الى احدى شركات النفط ، وكذلك الصور الرائعة لبلاد الريف عند الاكراد . واذا ما قدر لك ان تجتاز مصفاة البترول في مدينة اليزابيت بولاية نيو جرسي او ان ترى الحفارة الضخمة في فاولي في هامبشير ، او ان تراقب ناقلة نفط كبيرة تمر بمضيق جبل طارق ، او ان تجلس فوق ربى جبال لبنان وترى خزانات البترول بلونها الفضي تطل عليك من بعد ، من صيدا ، او ان تسمع هدير آلات التكرير في الكويت ، اذا قدّر لك ان ترى أحد هذه الاشياء ، فستدرك الشعور بالجدة الذي يأتي مع البترول .

وصناعة النفط على العموم صناعة نظيفة ، فاذا ما وجد الزيت الخام ، فانك لا تراه مرة اخرى ، لانه يمر عبر انابيب ضخمة ، حيث يضخ الى مستودعات على ظهر ناقلات البترول الى حيث ينقل الى المصافي ، ثم يذهب الى خزانات ، ثم يخرج منها . واعتقد بأن صناعة النفط خالية من القذارة على الاطلاق ، اذا ما استثنينا قذارة المال .

وقد ضرب السلطان مخيمة خارج مستعمرة النفط ، قرب مجموعة من الاكواخ المصنوعة من سعف النخيل ، يقطنها أفراد القبائل المحلية الذين حالفهم الحظ فوجدوا عملاً مع الشركة . وقد اعتزمت ان انام هناك ، ولكن رجال شركة النفط دعوني لقضاء الليلة معهم ، فألقيت بحقائبي ، وأنا أكاد اطير سروراً ، في سيارة لاند روفر وأخبرت سائقي ان

بامكانه ان يأكل حصتي من لحم الماعز ، ثم توجهت الى معسكر شركة البترول . وقد رأيت مطاراً منشئاً خارج فرهود وكانت الطائرات البريطانية الثقيلة تقوم برحلات يومية الى هناك ، تنقل معدات من البحرين ، وبعض هذه المعدات كبيرة جداً ، وقد قال صانعوها بأنه لم يسبق نقل معدات من هذا النوع بوساطة الطائرات من قبل . ومن المؤكد ان يسر المرء لوجود مثل هذا المخيم ، في مثل تلك المنطقة ، حيث تنعدم مياه الشرب ، وهو مخيم مريح جداً وتتوفر فيه كل وسائل الترفيه . والاكواخ في فرهود مبنية من الطوب فوق ارض رملية ، ولقد نسيت لم كان اول انطباع لي هو البحث عن مكان للاغتسال . وكان كل كوخ من هذه الاكواخ يشبه طائرة بعيدة المدى ، ويتألف كل كوخ من اربع غرف ، مرتبة ونظيفة ، بحيث تتوقع على الدوام من الخدم ان يحملوا اليك صحف الصباح كل يوم ، وحيث يسهر المسؤولون على راحة الاشخاص الذين يعيشون هناك . وكل كوخ مزود بجهاز لتكييف الهواء . وتوجد هناك حمامات ، تستعمل فيها مياه شبه مالحة ، وهي متوفرة تحت الارض هناك ، وهي ساخنة سواء في الليل ام في النهار . وكان كل شيء لافتاً للانظار وجديداً ومعقولاً ، وعلى كل حال ، كنت على الدوام مستمتعاً برفقة السلطان ، وخاصة تلك الليلة إذ نمت فيها على فراش وثير .

وكان المطعم افضل من الفراش ، فهو يتميز على الدوام بجو أيام الآحاد ، كما ان الذين يؤمونه ، أناس وديون ، اضف الى ذلك ان قائمة الطعام كانت تسيل اللعاب . ولم يكن هنالك عدة انواع مختلفة من الاطباق فحسب ، بل كان يبدو ان هناك كميات غير محدودة من اللحوم

والزبدة . وقد قيل لي بأنه ما من احد يرضى بالعمل في فرهود إلا اذا أكد له بأنه سيجد كل اسباب الرفاهية هناك ، ولم يكن السلطان ليسمح بادخال المشروبات الروحية الى فرهود ومع ذلك فان كميات كبيرة من البيرة كانت تحضر الى معسكر شركة البترول ، بالاضافة إلى جميع انواع المواد الغذائية المعلبة ، وبعضها كان ينقل الى هناك بالطائرات والبعض الآخر يشحن بطريق البحر ثم بطريق البر ، وتستورد الشركة كل ما تحتاج اليه من مواد غذائية وبيرة من عدن ، لتنقل الى الربع الخالي القصي . وكان الحرير والبخور والقرود قد شقت طريقها عبر شبه الجزيرة العربية ، اما اليوم ، فان البيرة هي التي تغزو تلك المنطقة .

وقد توجهنا في صبيحة اليوم التالي ، قبل ان تحتد حرارة الشمس ، لتزور بئر النفط ، وهو مكان له اهتمام خاص لدى السلطان ، إذ انه جعل منه مليونيراً ، كما اغنى كل مؤيد للجنيه الاسترليني . وكان يوم بدء الحفر قد اقترب كثيراً ، وكان رجال الشركة يأملون إذا ما سارت الامور على ما يرام بأن يبدأ البئر انتاجه في اواسط شهر كانون الثاني ، ولما زرناه ، كان كل شيء على اهبة العمل لمباشرة الحفر ، وقد سألت السلطان عما اذا كان يعتزم القيام بزيارة اخرى الى فرهود ليحضر افتتاح الانتاج فقال :

— لست اعتقد ذلك .. لقد وافقت ذات مرة على مثل هذا الطلب بناء على إلحاح شركة النفط الاميركية في ظفار ولكنني ذهبت إلى هناك ، ورأيتهم قد حفروا إلى عمق عدة آلاف من الاقدام ، غير ان الناتج لم يكن سوى ماء ، وهذا من سوء الحظ ، ولذلك قلت بأنني سأكرر المهزلة مرة اخرى هنا ، ولكن ربما .. وإذا عثروا على النفط هنا ..

وطلبوا إلي ان أفتتح الخط الموصل إلى البحر .. ربما آتي إلى هنا مرة ثانية » .

ومرت قافلتنا بطريق رملية ، ببطء اكثر من المعتاد ، وذلك يرجع إلى ان احدى سيارات شركة البترول ، كانت تتولى قيادتنا ، فمررنا عبر ممر صخري ، حتى وصلنا إلى منطقة جبل فرهود . ولقد كانت بقعة غريبة ، إذ ان التلال كانت تبدو من الطريق مستديرة تماماً (رغم انها تبدو بشكل مغاير تماماً عندما تنظر اليها من الجو) وكنا نسير بشكل اسطواني خلالها ، وقد زالت قممها بفعل التآكل ، وكانت تمتد على خط متوازٍ ، الأمر الذي لست أشك معه في أنه يهم علماء طبقات الأرض ، والذي ذكرني بصخرة برايتون ، واعتقد بأن هذه التلال ، كانت فيما مضى قبل بضعة ملايين من السنين جبلاً واحداً كبيراً ، ولكن الأمطار التي كانت تتساقط بغزارة في هذه المنطقة قد أزالت القمة وشطرت الجبل فتحوّل الى تلال ، ومهما يكن من أمر ، فان منظر هذه التلال يوحي للمرء بانعدام الحياة لكثرة ما فيها من صخور ومناطق جرداء غير انني ما كنت بحاجة لتذكير نفسي بأن هذه المنطقة الجرداء ، قد تصبح يوماً ما مصدر طاقة جبارة وثراء لا يخطر ببال .

وكانت آلة الحفر الفولاذية تنتصب عملاقة قرب الطرف الشرقي للموقع ، وتحيط بها عدة آلات حديدية متنوعة ، ولما وصلنا الى هناك ترجل جميع أفراد القافلة ، وبينما كان السلطان يتفقد الآلة بصحبة الرجل المسؤول ، قام العبيد والخدم وقد اعترتهم الدهشة بالتجول بين مختلف الآلات المنتشرة هناك ، ولما وصلوا إلى المكان الذي سيبدأ فيه الحفر ، انحنوا فوق الفتحة ، وأخذوا يحدقون فيها بأعين ملؤها الاستغراب ، ولما مروا من تحت أحد

الأعمدة الحديدية الضخمة ، راحوا يلمسونه ، كما تلمس المرأة قطعة قماش لتختبر جودتها ، وصعد السلطان الى احد السلالم ، بينما كان العبيد والخدم ينزلون سلماً آخر ، وهكذا كانت هذه المجموعة من الناس المدججة بالسلاح ، تنتشر كالجراد فوق موقع الحفر ، مستمتعة بوقتها كل الاستمتاع .

وسمعت أحد الرجال يقول لآخر : « اعتقد بأن الانكليز بطيئون في عملهم ، ان الأميركيين ينفذون أعمالهم بسرعة اكثر » .

وقدرت أنه ربما كانت آلات الحفر التي يستخدمها الأميركيون ليست قوية جداً ، ولكنهم يعملون بسرعة ، وان جاءت نتيجة أعمالهم مجرد ماء وليس بتروولاً ، ولكنني اعتقد بأن من يحفر أسرع يستحق ان يجد البترول قبل غيره .

ولقد عجزت في شرح الأمر لذلك الرجل ، بعد أن حاولت خلال نصف ساعة من الزمن ، وبما احفظه من كلمات عربية قليلة ، ولم يسعني في النهاية إلا أن ابتسم ، ولما فكرت فيما حاولت شرحه ، شعرت بسخف محاولتي ، فرفعت رأسي لأرى السلطان يستمتع بوقته على أحسن ما يرام ، وقد بدا شخصاً ضئيلاً تحت عمامته الكبيرة ، يحرك قدميه — وكان يرتدي صندلاً — ببطء وهو يدور في انحاء الموقع كأنه أحد الخبراء في شؤون البترول ، وإلى جانبه مدير العمل ، وهو رجل مديد القامة ذو خبرة واسعة في ميدان البترول واطلاع واسع في صناعته ، فكان إذا اراد ان يحدث السلطان ينحني فوقه ويشرح له كل شاردة وواردة من الأعمال التي كانت تجري هناك . وتناهت إلي نتف من الحديث

الذي كان يدور بينهما ، وكان عن اعمال الحفر ، والعمق المتوقع للبئر ، والكمية المنتظر انتاجها من البترول مقدرة بالبراميل والاطنان المكعبة ، وما يتوقعه رجال الشركة من مشاكل ، وكان السلطان يصغي الى هذا الشرح إصغاءاً تاماً ، كأنه يريد ان يستوعب كل كلمة منه .

ورحت اسائل نفسي ما الذي سيحدث ، لو أنهم وجدوا البترول بكميات هائلة ، واصبحت فرهود من الآبار التاريخية في العالم ، كتلك الآبار المشهورة في اميركا او العراق ؟ إن موقع فرهود لا بد وان يكتظ بالسكان ، الذين سيفدون اليه من كل حدب وصوب طلباً للعمل ، كما سيصبح منطقة صناعية يشار اليها بالبنان ، ولن تلبث المنطقة ان تصلح ، فتبنى فيها الدور وتشق الطرقات ، وتمد انابيب النفط إلى الشاطىء ، وعندها ستضاء المنطقة ، وسترى الانوار من مسافة بعيدة في الربع الخالي ، فتهدي المسافرين عبر الجبال والقادمين من مسقط .

وستؤسس النوادي في فرهود وكذلك المدارس المهنية ، وستعلق صورة الملكة ودوق ادنبرغ ، وستبنى دار للضيوف ، يؤمها الصحافيون ، وترضع فيها اعداد لا بأس بها من صور السلطان ، وتدرس فيها اللغة العربية من قبل افراد من مسقط ، يرتدون ثياباً جيدة ويحتلون مراكز مرموقة ، وإن كانت المسؤليات التي يحملونها قليلة . وكذلك سيفد إلى فرهود زائرون من مركز الشركة ليدفعوا المال شيكات ، وستكون هناك غرفة خاصة للمدير ، حمراء الاثاث ، وستلحق بها غرفة أخرى للاستراحة . وسيعمل العرب في قيادة السيارات ، وستؤم المكان افواج إثر افواج من البدو ، سعياً وراء العمل ، فيجتمعون خارج مكتب التوظيف ، وتصدر عنهم ضوضاء لا تطاق ، وسيكون بمقدورك أن

تشتري السجائر من المطار ، وستحملك سيارة بريطانية فخمة إلى معسكر البترول .

وكذلك فإن تلك البئر الاولى في السلطنة ستترك ذكرياتها في مختلف انحاء السلطنة ، إذ انه ستنشأ على طول امتداد انابيب النفط حتى بحر العرب ، محطات ضخ ، وعند كل محطة ستتشكل بيئة من الناس ، يتزاورون فيما بينهم ، ويزورها أيام الآحاد قساوسة ، لاقامة الشعائر المسيحية في قلب الصحراء ، وسيلهو اطفال الأسر في حدائق ولكنها ليست غناء ، ومن يدري ، فقد تتلقى تلك الأسر زائرين في أعياد الميلاد ، وستملأ ناقلات البترول البحر الواقع وراء « جدات الحراصيص » حيث يضخ البترول اليها ، دون ان يراه أحد ، ماراً بالأنابيب الخاصة به ، وستجيء عدة سفن أخرى مسجلة في موانيء مختلفة ، تحمل أعلاماً لا يستطيع أحد ان يعرف الى أي الدول تنتمي ، وقد تكون هذه السفن مبنية في اليابان او ألمانيا الغربية ، ويملكها صاحب اكبر اسطول لناقلات البترول « اوناسيس » . وكذلك ستنشأ عدة وكالات شحن في مسقط ، فيدب فيها الازدهار ، بما تدفعه من عمولة ، وستبنى فنادق تتقاضى ١٠٪ خدمة ، وستنشأ شركة خطوط جوية لمسقط وعمان ، كما ستبنى طريق صالحة عبر الجبال ، وستغزو البلاد مختلف المنتجات الغربية ، بما في ذلك التراكتورات ، لتحسين الأوضاع الزراعية .

والحقيقة انني رأيت كل هذه المظاهر تتحقق من قبل في إمارة الكويت ، في أعلى الخليج العربي ، وعلى هذا فإن المرء ليعتقد ، بأنها سهلة التحويل ، الى بلد نموذجي . وبالفعل ما إن اكتشف البترول هناك ، حتى بدأت السيارات تنطلق في شوارعها ، مثيرة سحباً كثيفة من الغبار ،

محدثة أصواتاً مزعجة بأبواقها ، وأصبح المرء يجد فيها كل انواع السجائر الممتازة ، ويرى في كل مكان بنايات يجري بناؤها ، والعمل فيها قائم على قدم وساق ، كما شقت الطرقات الواسعة بين البيوت القديمة واخترقت السور الطيني (الذي بني قبل ثلاثين سنة فقط كخط دفاع ضد غارات القبائل) وافتتحت عدة مدارس جديدة ، انشأها الحاكم ، على احدث الطراز ، فيها قاعات فخمة ، ونفذت عدة مشاريع البلديات ، فحسنت حياة المنطقة ، ودبت فيها نشاطات مختلفة ، وما زال عمال بناء المراكب يبنون مراكبهم العربية المعروفة .

وليس بمقدور مسقط ان تتجنب مثل هذا التغيير ، إذ أن البترول والمال الذي يدره ، لهما طاقة مخيفة في تبديل طبيعة الناس ، ولن يمضي طويل وقت ، إذا ما سارت الامور وفقاً لما هو متوقع ، حتى يفقد أهالي مسقط وعمان الكثير من تقاليدهم القديمة وعاداتهم الجميلة ، وحبهم للمعارك ، وتنعدم عندهم البساطة ، وسيتخلل أحاديثهم نوع من الأثرة والطمع وحب المال . وقد نزلت ذات مرة من الباخرة إلى ساحل قطر ، وسألت أحد سائقي السيارات من أهل البلد أن ينقلني إلى الدوحة — عاصمة قطر — التي لم اكن قد زرتها من قبل ، وبعد فترة قصيرة وصلنا إلى بلدة عربية جميلة لها أسوار بيضاء قديمة ، وابراج عالية ، وفيها عدد قليل من اشجار النخيل ، ولما سألت السائق عما إذا كانت هذه هي وجهتنا ، رأيت على وجهه إمارات تدل على الضيق ، وخاصة عندما قال : « الدوحة .. نعم .. هذه هي الدوحة ! » ولكن أتراني نسيت ان البترول قد اكتشف في قطر ؟ لا شك في انني نسيت ذلك ! وليس من شك

مطلقاً في أن هذا البلد سيصبح عما قريب من البلدان المرموقة ، سواء من ناحية الرخاء ، او من ناحية الجمال .

وفكرت وانا اتطلع إلى السلطان فيما عسى ستكون حاله بعد اكتشاف البترول ، وهل سيظل صديقاً لبريطانيا ؟ وتذكرت الظروف التي جاء فيها الى الحكم ، وتساءلت كم سيطول حكمه اذا ما تم اكتشاف البترول ؟

وكان منطقياً أن يكون اول شيء ينتهي أجله هو المعاهدة البريطانية ، التي تضمن السلطة لأسرة السلطان وتصون كل الانظمة القديمة في السلطنة . وبموجب هذه المعاهدة ، تساعد بريطانيا السلطنة في إدارة شؤونها الخارجية ، وتقدم لها الحماية ، ويمنح السلطان في مقابل ذلك الرعايا البريطانيين ، امتيازات خاصة تؤهلهم للاشراف على الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة العربية . وإذا ما تعرض السلطان لنزاع حول الحدود ، فبأمكانه ان يتأكد من تأييد الحكومة البريطانية له ، واذا ما اكتشف البترول في عمان فان البريطانيين يمكنهم الاعتماد على السلطان في استغلاله ، وكان البريطانيون في تلك الفترة من تاريخ امبراطوريتهم ، يدعمون بقوة سلطان مسقط ، ويشدون أزره .

ولكن هذا النظام ، كان يبدو فاشلاً ، اذ أن مركز بريطانيا في جميع أنحاء الشرق الأوسط أصبح مهدداً بشكل خطر بتزايد القوى الوطنية ؛ كما أنه كان واضحاً ان جميع حلفائها لم يكونوا من مؤيدي السلطان ، وظهر ان الارتباط التقليدي الذي جعل من بريطانيا (الأم المتبنية للثورة العربية) ، والذي كان يمدها بسلطان قوي في المنطقة ،

ظهر ان هذا الارتباط قد أخذ يهدد مركز بريطانيا بشكل شديد ، إذ أنه بعد شهر او شهرين طرد « غلوب باشا » من الأردن ، وبطرده من هناك أخذت أعمدة مراكز نفوذ بريطانيا في الشرق الأوسط تتداعى واحدا إثر الآخر . وكانت القوى الوطنية ، قوية منذ الحرب العالمية الاولى ، فتحالفت في تلك الفترة مع القوى الراديكالية ، واستمدت حيوية جديدة من عنصر الشباب الذي قام بالثورة المصرية ، وشنت القاهرة حملة من الدعاية القوية ، تهدف في الدرجة الأولى ، الى تخليص العالم العربي من النفوذ الغربي ، وسيطرة الاقطاع على حد سواء . وليس من المهم ان نذكر هنا ان المملكة السعودية التي ظلت صامتة ، كانت السند الرئيسي لمصر ، والتي تقدم لها ما تحتاج اليه من أموال لتنفق على حملتها ، وقد تم شحن الملك فاروق بعيداً عن مصر الى أوروبا ، على ظهر يخته الملكي (وقد عاد اليخت الى الحكومة الجمهورية فيما بعد) ومرعان ما اتضح لكل عربي شاب تقدمي ، أن غيره من الاوتوقراطيين سيندثرون كذلك ، ومعهم أصدقاؤهم من الأجانب ، اذا لم يسايروا ركب التطور والتقدم .

وقد نشأت في الكويت طلائع حركة تقدمية من هذا النوع ، وأعلنت الاضرابات في البحرين ، وسارت المظاهرات مطالبة بمزيد من الحقوق التشريعية .

وفي العراق ازدادت قوة الجمهوريين وازداد نشاطهم ، وأصبحت معاهدة التحالف البريطانية في الأردن عرضة للنسف . وكان الديموقراطيون

في بعض الأحيان وراء ذلك ، وفي بعض الأحيان ، كان الديموقراطيون يتحالفون مع الفئات الدينية المتطرفة ، ولكنهم على الغالب كانوا مدفوعين بعوامل التحرر ، كما أن العالم العربي باسره قد بات مسرحاً لحركات من هذا النوع ، تتلاقى احياناً وتتضارب احياناً اخرى ، وتتحد في معظم الاحيان ، حتى بات على الحكام التقليديين والاقطاعيين أن ينظروا الى الفئات الوطنية الجديدة ، وهم لا يستطيعون أن يقوموا ضدها بأي عمل ، يحد من نشاطها .

ولقد فكرت في أن اكتشاف النفط في مسقط وعمان ، من شأنه أن يوقظ مثل هذه المشاعر الوطنية في تلك البلاد النائية المتخلفة ، وبما يذكر ان قليلاً من العنف قد استعمل في تلك الاجزاء من السلطنة ، التي تقع تحت حكم مسقط مباشرة ، فكلمة السلطان هي القانون ، وأحكامه لا تقبل المناقشة وتنفذ باحترام . وطبيعي ان القسم الداخلي من البلاد لم يكن تحت إشرافه ، ولكن بقية اجزاء السلطنة ، كانت خاضعة له ، يحكمها وفقاً للمبادىء القديمة الرئيسية ، ولكن السلطان لم يقدم على قلع الاعين وقطع الايدي لمن يرتكب جرماً في مسقط . ولم يكن هنالك صحف ، أما عدد الطلاب فكان قليلاً جداً ، ولم تحاول بريطانيا أن تدفع عجلة العلم في تلك البلاد ، ومن غير الانصاف القول بأن البريطانيين قد حققوا الكثير من التقدم والازدهار هناك ، ومع ذلك فإننا لو استثنينا الامراض الفتاكة لامكننا ان نعتبر الناس هناك سعداء ، كما أنه لم يكن ثمة مبرر لطلب انتشار الطرقات والبيوت والمستشفيات ، لسبب واحد ، هو عدم وجود المال لانشائها ، كما ان عدداً قليلاً من المواطنين بدأوا يفكرون في ايجاد التشريعات الضرورية .

ولكن .. بعد اكتشاف البترول بسنوات قليلة ، يصبح من الممكن تغيير كل هذه الامور وبمنتهى السهولة ، وقبل أن تصيب عائدات البترول الشعب بخيراتها على نطاق واسع ، فان القوى الوطنية ستلفت الأنظار إلى البيوت التي تنشأ في فرهود والطرقات المريحة التي تشق عبر الجبال وإلى السيارات الفخمة والبيت الجميل الذي يتمتع به مدير الشركة ، وسنسمع العرب الأحرار يصيحون قائلين : « بترول العرب للعرب » . وقد شن راديو القاهرة في ربيع تلك السنة حملة قوية تساءل خلالها : « لماذا لا تستغلون ثرواتكم الضائعة التي يسرقها اعداؤكم ؟ تذكروا النفط .. إنه ثروتنا المهدورة ، النفط للعرب ، إن البريطانيين يمثلون بذلك الرجل الذي يرتدي بذلة بيضاء ، ويتخذ من مسقط مقراً له ، وتلك السفينة التي ترسو في الخليج وتقل عدداً من البحارة ، سرعان ما سيحتلون البلاد بوصفهم مستكشفين ولكنهم في الواقع ليسوا إلا لصوصاً ومستعمرين » . ومع هذه الحملة ، سينبثق العديد من الأفكار السياسية التي ستكون مثيرة بالنسبة للعقل البسيط ، ولن تمضي سنوات طويلة ، حتى تقذف نافذة شركة البترول بالحجارة ، ويسير عدد من الشباب الهائجين في الشوارع ، وستردد كلمات القومية العربية في المقاهي ، وستنشأ صحف تلعب دورها في ميدان التوجيه السياسي ، ومع مرور الأيام سيتضاءل شأن الشركة ، ويصبح أمرها وأمر رجالها منسياً ، وتتقلص الاتصالات البريطانية القديمة ، وستلغى المعاهدة ، ولن يبقى معتمد بريطاني في مسقط أو مستشرق بريطاني في ظفار ، وكنتيجة لسنة التطور ، ستصبح شبه الجزيرة العربية للعرب ، وسيصبح هذا الشعار هو شعار الجماهير العربية هناك .

وفي مثل هذا المعترك ، سيكون من حسن حظ السلطان أن ينجو

بنفسه ، وشيئاً فشيئاً ، وسنة بعد سنة ستلوّن السياسة الحياة في مسقط ، ومن الجائز ان تنشأ أحزاب سرية تعقد اجتماعاتها في المقاصير العليا ، وتتألف لجنة تنفيذية عليا ، وسيصل الرسل من البلاد العربية المتحررة حاملين رسائل التأييد ، كما أن منظمي الأحزاب سيتلقون تدريبهم في القاهرة ، وسيطالب الشعب بانتخاب ممثلين عنه ، وستسير المظاهرات الصاخبة خارج القصر ، وستدور الهمسات في كل مكان حول السبل التي ينفق بها السلطان أمواله ، وسيقول الواحد للآخر : لماذا أنت فقير في بلد ينتج ذهباً ؟ أين تذهب كل هذه الأموال ؟ وسيتحدثون عن مشاريع للري والقوى الكهربائية وافتتاح مدارس جديدة ويتساءلون لماذا نظل في هذه الأسمال المهلهلة ؟ لماذا لا نصبح أثرياء ؟ ان النفط هو للشعب ، تذكروا ثروتكم المسلوبة . وسيأتي اليوم الذي يصبح فيه السلطان غير مدعوم من بريطانيا وسيذعن لمطالب شعبه . وسيضطر إلى تنفيذ بعض الاصلاحات الديموقراطية ، ومن المعروف ان الاتجاه نحو الديموقراطية يعتمد إلى حد كبير على آراء الشخص الذي يريد ان ينفذ الديموقراطية وفي أضعف الحالات فانه – اي السلطان – سيظل مجرد رمز لا قوة له ولا نفوذ .

وكانت هذه على وجه العموم من الاحتمالات المحزنة ، ولكنها ليست احتمالات لا يمكن تجنبها ، وإنني لا أشك مطلقاً في أن مسقط إذا اصبحت يوماً ما دولة منتجة للبترول وغنية ، فان واردات النفط ستستعمل بحكمة على تحسين مرافق البلاد ، ومما لا شك فيه أن مشاريع ري ستنفذ في الاقسام الخصبة من السلطنة ، وستبنى محطات توليد الكهرباء ، وتستغل ثروات البلاد المعدنية ، وتفتتح المدارس والمستشفيات ، وتبنى

البيوت ، وتجدد صناعة صيد السمك على الأصول الحديثة ، وربما بنيت بعض المصانع الصغيرة ، وإذا ما توفر للسلطنة بضعة عقود من الاستقرار فانها ستحظى بمستوى حياة لا يقارن ، ومجتمع راق يتمتع بالصحة . أما التعليم والحريات السياسية فستمنح تدريجياً ، جنباً الى جنب مع النهضة العمرانية ، وإذا ما حالفها حسن الحظ فقد تنشأ في جنوبي شبه الجزيرة العربية ، وربما عندما يخط الشيب لحية السلطان ، دولة عربية صغيرة ، فريدة من حيث تراثها وأمنها وتقدمها .

غير ان الأمر قد يحتاج إلى قرن او قرنين وفقاً للنظام القديم ، هذا إذا أمكن تحقيقه خلال هذه الفترة ، ليعطي نتائج ملموسة ، فالمشاريع الكبرى المتعلقة بالتطوير ، تحتاج إلى وقت حتى تؤتي أكلها وهنا يكمن الخطر . وقد مرّ العراق خلال هذه الفترة بالذات فقطعها ، ولكن بانفاس لاهثة ، فقد كان من الصعب إنفاق واردات النفط في مشاريع مثمرة ، وإن كانت السلطات قد أنشأت مشاريع ري ومصانع ومدارس ومنازل ، وآلاف الأشياء الأخرى التي من شأنها ان تحول العراق إلى كندا شرقية . ومع ذلك ، ورغم كل تلك المشاريع ، ظل الفلاحون العراقيون على فقرهم ، ولذا التفوا وأيدوا الرجال الثوريين ، وكان من الضروري أن يمر وقت قصير حتى تتحسن الأحوال ، ولكن الرجل الفقير لا ينتظر . فاضطرت الحكومة الى اللجوء الى اعمال القمع وفرض رقابة شديدة على الصحافة ، حتى تمنع وقوع الانفجار ، وقد يفهم الغريب هذه الاوتوقراطية الشديدة الصارمة ، غير ان التقدميين العرب ، ما كانوا ليفهموا مثل هذه الاجراءات إلا على اساس أنها ضرب من التعسف .

وأعتقد بأنه يتحتم على السلطان ، أن يؤجل تقدم الديمقراطية ، حتى

تستقر موارده الاقتصادية ، وقد يلجأ إلى تشديد قبضته على أمور الدولة ، وحتى يتوفر في البلاد العدد الكافي من ابنائها المتعلمين ، فسيظل بحاجة إلى مستشاريه الأجانب ، ويستحسن ألا يعطي لهم صفة رسمية ، إذ أن بريطانيا بوصفها مسؤولة عن مسقط ، ستتعرض لنقد شديد . وليس من شك في أنه سيفتح حدود بلاده للتجارة ، ويرحب بالاصدقاء الأجانب ، ولكن عليه كذلك ، أن يبقى حذراً من العناصر الثورية التي تكثر بشكل خاص بين الفلسطينيين الذين بذروا بذور الروح الثورية في أماكن أخرى كثيرة ، فهل تعتبر هذه الاجراءات فاشية أو حكماً استبدادياً ؟ قد تكون ، وقد لا تكون .

أما بالنسبة للبريطانيين ، فمن يدري ؟ إذ ربما أصبح النفط بعد ثلاثين أو أربعين سنة غير حيوي بالنسبة لاقتصادهم ، وقد تصبح منتوجات الخليج العربي من النفط عديمة القيمة كالطريق القديم الى الهند ، فمحطات الكهرباء ، وهي اكثر المصادر استعمالاً للنفط ، أصبحت تدار الآن بقوة الطاقة الذرية ، في كل من أميركا والاتحاد السوفييتي وبريطانيا ، ويعتقد بعض الاقتصاديين بأن الزيت سيستعمل في نهاية هذا القرن لتشحيم الآلات ليس إلا ، وعندها لن تكون بريطانيا بحاجة لابقاء قبضتها على منطقة الخليج العربي ، وسيلغى مكتب المقيم السياسي في البحرين الذي يشرف على شؤون المنطقة كلها ، وستغطى علاقات بريطانيا بمشيخات وإمارات الخليج العربي عن طريق معاهدات تجارية ومعاهدات ضمان لحدودها .

وأعدت شركات النفط العدة لكافة الاحتمالات ، بحيث تستطيع مواجهة كل طارىء مهما كان ، شأنها في ذلك شأن « الحرباء » تغير لونها وفقاً للبيئة التي توجد فيها . وكنت وما زلت أعتقد بأن اسوأ نظام تتبعه

شركات البترول الغربية يتلخص في تدخلها في الشؤون الداخلية للبلاد التي تعمل بها ، ولكن الشركات تقول بأن هذا التدخل يحملها عليه ابناء البلاد أنفسهم ، هذا إن وجد مثل هذا التدخل . ثم ان بعض رجال البترول من المدرسة القديمة يعتقدون بانهم يعملون لشركة بريطانية أي لفائدة بريطانيا ، الأمر الذى يسبب نفوراً في البلدان الشرقية ، ويدفع الأحزاب الوطنية الى التحالف مع زملائها في البلدان العربية ، وتعطي الشركات أنفسها اعذاراً لتعليم رجالها اللغة العربية ، مع أنها لغة صعبة ، وترى مجلة الشركة ، فتظن أن الفضل في إصدارها يعود الى « جمال حسين » بينما يعرف الجميع أن « هنري باركر » هو المسؤول عنها . ولم يمض طويل وقت على انشاء مصفاة البترول في عبادان ، حتى غزت المدينة سيارات باص انكليزية ، وسيارات تكسي انكليزية ، وصحف انكليزية ، وحتى « جرسونات » انكليز ، يعتذرون لك إذا ما طلبت قدحاً من الشاي بانهم لا يقدمون الشاي بعد الساعة الخامسة والنصف ، وغدت المدينة شيئاً آخر ، بل انك اذا انتقلت من اصفهان الى عبادان ، فكأنك انتقلت من عالم الى ثانٍ ، واعتقد بان النظام القديم الجامد الاستعماري قد مات ، ويجب اتباع تكنيك جديد ، فاغلى ما يتمناه العاملون في دنيا النفط هو أن يسمعوا عراقياً او كويتياً او ايرانياً يتحدث عن شركة النفط على اعتبار أنها « شركته » .

وعلى العموم ، فان العرب ليسوا أصدقاء البريطانيين ، ولا حتى بمقدار النصف الذي تصوره مجلة الشركة ، والمجلة اذ تبالغ في ذلك ، انما تنجنى على الحقيقة ، وتشوّه الواقع ، ولأول مرة بدأت بريطانيا تبدو في منطقة الشرق الأوسط ، ليس بانية امبراطورية ، او معطية استقلال ، أو محسّنة

الأوضاع ، أو جالبة ثقافة ، أو مثالاً حسناً ، بل بدت وبكل بساطة كدولة تجمع المال ، فالعرب لا يريدون البريطانيين بصفاتهم القديمة ، وأفضل ما يمكن البريطانيين ان يفعلوه ، هو ان يحافروا ما ليس من وقوعه بد ، وذلك عن طريق تغيير سياستهم ، والقيام باي شيء يمنع من القاء الطوب على نافذة شركة البترول ، وهو العمل الذي لا يفيد أحداً .

ونزل السلطان من السلم بخطى حذرة ، واتجه الى السيارات ، وقد وضع يده على مقبض خنجره ، وسرعان ما تدافع العبيد والخدم من موقع الحفر الى السيارات واتخذوا أماكنهم ، ورأيت القاضي العجوز يتنفس بصعوبة وهو يرتقي سيارته . وبينما كنت منتظراً في مقعدي ، مرّ السلطان ومعه مدير الشركة ، وكانا ما يزالان يبحثان في بعض الأمور الفنية ، وسمعته يدمدم ، وهو يصعد الى سيارته قائلا : « لقد فهمت » ولما أديرت المحركات انحنى مدير الشركة مودعاً ، وثبّت العبيد أنفسهم فوق الامتعة ، وظلت عنزات يتيمة تثغو وراثي ، واستغرقت في تفكير عميق ، خرجت منه بنتيجة هي أنه قد لا يكون هنالك زيت في منطقة جبل فرهود . فهو ليس بالمكان الوحيد الذي ثبت أنه خالٍ من

— ٥ —

« إلى الجبال — مع الجنود — أدام — الفلوج
— رايات حمراء — اجتماع في فِرْق — نزوة
— في القلعة — في ميدان المعركة — سليمان
بن حمير »

كانت رحلة طويلة استغرقت اليوم بكامله ، تلك التي قمنا بها ، من فرهود الى جبل يدعى « الجبل الاخضر » معقل حركة الامام ، ومقاومته لاغتصاب بلاده ، وقرر السلطان ان يمضي الليلة التالية خارج بلدة فِرْق — Firq — البلدة التي قام فيها بعض مؤيدي السلطان ، في لحظة حماستهم ، باطلاق الرصاصة الوحيدة في المعركة الحربية . وكان بعض رجال قوة ميدان مسقط وعمان قد حضروا الى فرهود لمرافقتنا الى هناك ، ومعهم اثنان او ثلاثة ضباط انكليز ، يرتدون الثياب الحاكية ، ويضعون على رؤوسهم أغطية كتلك التي يضعها المتطوعون ، وقد استقلوا سيارة رمادية من طراز « لاند روفر » ، وكانت تبدو لي على الدوام كأنها لعبة

اطفال اشتريت من السوق عشية عيد الميلاد ، اذا ما قورنت بالسيارات الأخرى .

ولقد اخبرني السلطان عندما ذهبت الى زيارته قبل رحيلنا ، بان الجنود قد ابلغوه بانهم يتوقعون قطع مسافة خمسة عشر ميلاً في الساعة ، ثم استطرد يقول : « انني لا أحب هذا يا مستر موريس ، كما تعلم ، انني افضل السفر بسرعة اكثر ، واعتقد بأنه ينبغي ان تدع الحرس يذهبون قبلنا ، فهل ستكون مستعداً للسفر خلال ساعتين من الزمن ؟ »

وهكذا مضى الجنود في تشكيلات جميلة ، متنكبين مدافعهم الرشاشة كما يحمل المعدنون فؤوسهم . وبعد أن أمضينا الساعتين المذكورتين في أحاديث سياسية وخاصة ، تبعنا الجنود الى المرتفعات ، وسرعان ما وجدنا طبيعة المنطقة قد تغيرت ، ولما تراءى لنا الجبل الاخضر بصخوره التي ترتفع الى السماء ، بدأنا نرى وديانا خضراء ، فيها اشجار كثيفة ، ويغمرها هواء لطيف ، مصحوب برذاذ مطر خفيف ، وخيل اليّ ذات مرة انني أرى عن بعد بساتين نخيل غنية ، واسواراً عالية لاحدى القرى المحصنة ، ولكن السائق سخر من الفكرة ، غير أنه ثبت فيما بعد أنه كان مخطئاً ، إذ سرعان ما وصلنا إلى قرية « أدام » — Adam وهي بلدة أسلاف السلطان واقصى بلدة في غربي عمان ، وتعتبر هذه البلدة بداية المنطقة الجبلية ، وهي أقل المناطق العربية المأهولة ، معرفة للناس .

ولما وصلنا إلى هناك ، وكان قد زارها قبلي من الأوروبيين ثلاثة فقط ، كان أحدهم الكولونيل « س. ب. ميلز » الذي زارها سنة ١٨٨٣ ، ووصفها بأنها تشبه قلعة تطل على الربع الخالي ، لما وصلنا إلى هناك

ورأيت اخضرار أراضيها ووديانها ، وافقت الكولونيل « ميلز » على أنها بالفعل تقع في مكان يشرف على أراضٍ خطرة . وكانت البلدة محاطة بسور عال ، تنتشر فيه هنا وهناك الأبراج ، ومراكز القتال ، وهكذا كانت اشجار النخيل الخضراء محجوبة عن العيان بذلك السور المبني من من الحجارة الصفراء . ووراء البلدة يقع الوادي الذي يفضي إلى الجبال ، وفي هذا الوادي توجد بعض القلاع الصغيرة ، مشيدة باشكال شبه مستطيلة ذات نوافذ قليلة . وكانت هذه القلاع تنتشر الى أبعد ما تراه العين ، وقد استخدمت اثناء الحرب كمراكز للمراقبة لمنع نزول قوات الأعداء من الجو . وقد رأيت على قلعة او اثنتين منها بعض الرايات الحمراء ترفرف ، ومثلها يطل من نوافذ بعض الدور في البلدة ، وكانت ترمز إلى الولاء والخضوع ، ولكن هذه المنطقة ، منطقة ذات تقاليد خاصة عرفت بالعنف الشديد ، فيها الحرب والانتقام هما السائدان ، ولذلك فقد كان عدد قليل من سكانها قد تسلقوا الأسوار لمراقبة السلطان الغاضب وهو يمر ببلدتهم . وبدت البلدة وكأنها مهجورة تماماً إذ لم نر إلا عدداً قليلاً من النساء يرتدين الثياب السوداء واثنين من الأطفال ، وكانا هما الشخصان الوحيدان اللذان أسرعا الى الوادي لتقديم احتراماتهما للسلطان .

وحل موعد الصلاة ، فتوقفنا خارج البلدة ، في مكان تظلله الأشجار حيث كان رجال الحرس بانتظارنا هناك . وفهمت أن السلطان أراد أن يزور بلدة أسلافه في وقت لاحق ، عندما رأيته يتفقد البلدة بوساطة منظاره ، فبدا كأحد أصحاب البنوك في شيكاغو ، يعود لزيارة مرابع طفولته في أوروبا ، ولم يتقدم السلطان من البلدة ، ولعله كان يشك في ولاء أهلها له .

وترجلنا من السيارات ، ووجدنا أن هناك على بعد مائة باردة فقط قناة اصطناعية ، تجري فيها مياه عذبة ، صافية وباردة ، وتكثر فيها الاسماك الصغيرة . وقد اكتشفت أن عمان مشهورة بهذه القنوات التي تخترقها طولاً وعرضاً ، وتدعى الواحدة منها الفلّوج ، وتشكل في مجموعها شبكة ممتازة من شبكات الري ، وقد عرفت أن البلاد خلال فترة من فترات تاريخها الأسود ، كانت تحكم من قبل الفارسيين ، الذين أدخلوا اليها فن الري الذي اتقنوه في بلادهم ، وتجر في هذه القنوات المياه من الجبال إلى المناطق المنخفضة ، ويبلغ قطر القناة ثلاثة أو أربعة أقدام ، وهي تشبه إلى حد ما خط السكة الحديدية في لندن المعروف باسم « متروبوليتن » بحيث أنها تمر في معظم مراحلها تحت الأرض غير أن بعض أقسامها يبرز فوق سطح الأرض ، ولها فتحات يمكن النزول اليها بوساطة درجات ، تساعد النساء على غسل ثيابهن ، كما تساعد الرجال الذين يريدون أن يستحموا . وكان ذلك الفلّوج في « أدام » مثيراً بفتحاته الظاهرة فوق سطح الأرض ، وكان الأعراب ينزلون اليها بسرور ويسكبون مياهها على وجوههم ويغمرون فيها أقدامهم ، ويشربون منها ويغسلون بها ثيابهم ، ويفعلون في الحقيقة كل ما يفعله الانسان بالماء . والماء لكل اولئك المسافرين له قيمة كبيرة ، كالذهب او اليورانيوم بالنسبة للناس الآخرين في الظروف الأخرى . وتذكرت القصة التي تروى عن السلطان – ربما كانت غير صحيحة – عندما زار لندن ، واستدعى مدير الفندق الذي نزل به ، ليطري له مزايا الماء الذي قدمه له .

وفي ذلك الصباح ، وبعد أن قطعنا عدة أميال من الطريق ، دون ماء ، أحببت ان أشارك العرب متعتهم ، فتوجهت الى فلوج ونزلت

درجاته ، ووصلت إلى حيث الماء .

وكانت المنطقة التي دخلناها ، خصبة وغريبة ، اذا ما استثنينا بلدة أدام ، وتزداد خصوبة كلما اوغلنا في طريقنا نحو التلال . ولاحظت أن بساتين الأشجار قد ازداد عددها ، وكنا نمر بين الفينة والفينة ببلدة صغيرة محاطة بأسوار تحف بها اشجار النخيل . وقد اتبعنا ، كمن سبقنا من المستكشفين طريقاً نستطيع فيه أن نتجنب المرور بقبيلة عبادي ، فسرنا في الطرف الآخر من البلدة ، وان كنا متأكدين من أن سكانها كانوا يراقبوننا من وراء نوافذهم المغلقة . وفي مكان يدعى « عز » أبدى سائقي أول بادرة تشير الى جهله السبب الذي من أجله قمنا بهذه المخاطرة ، والحقيقة انني استغربت كثيراً عندما سألني فجأة : « هل هذه البلدة ملك للسلطان أو لحاكم آخر ؟ » ولما أجبته بأنه لا يوجد حاكم غير السلطان ، قال السائق ضاحكاً : « حسناً .. حسناً جداً » .

والحقيقة أنه غير صحيح القول بأن السلطان قد استقبل من الرعايا العمانيين بأي مظهر من مظاهر الحماسة ، وكنا نمر في بلاد كثيفة السكان ، وينتشر فيها هنا وهناك أناس يعانون من سوء التغذية ، يرتدون أسمالاً بالية ، وكنا نرى بعضهم يقف على جانب الطريق ليشاهد موكبنا وهو يمر ، ولم يكن بين هؤلاء غير واحد او اثنين يحملون رايات حمراء صغيرة ، كانا يحركانها بدون حماس ، أما الباقون ، فقد كانوا يقفون والأسى مرتسم على وجوههم ، يحدقون بنا وأفواههم فاغرة ، ولم يخف بعضهم اشمئزازه من الموكب ، معبراً عن ذلك باشارات من يده ، أو ببصقة على الأرض . وتذكرت ما قاله بعض الصحافيين للمستر « ويلفريد ذي سيغر » في إحدى رحلاته المشهورة : « لماذا تتوقعون منا أن

نساعدكم معشر الاوروبيين ؟ إننا لو فعلنا لجاء غيركم بحجة البحث عن البتترول ، ولكنهم في الواقع يريدون أن يسلبونا بلادنا » . ولا بد أن مثل هذه الشكوك قد مرت بأذهان اولئك النفر من الناس الذين تجمعوا ليروا موكب السلطان ، واعتقد بأنهم على حق في شكوكهم .

غير أن عدد الرايات ، أخذ في الازدياد كلما صعدنا في الوادي ، الا أنني لاحظت أنها ليست أعلاماً بالمعنى المفهوم ، ولكنها عبارة عن قطع قماش حمراء ، قصها صاحب البيت كيفما اتفق ، عندما رأى الغبار الذي تثيره سيارات السلطان وهي في طريقها عبر قريته ، وبعض هذه الرايات ، كان عبارة عن قطع ملابس داخلية ، متعددة الألوان ، وطبيعي أن هذه الرايات لا تدل على الولاء ، اذ ان جواً من التوتر كان يخيم على البلدة ، بل على الوادي باكمله .

ووصلنا بعد الظهر الى بلدة تدعى « معامير – Ma'amir » بعد أن قطعنا الطريق عبر العديد من الوديان والوهاد ، ومررنا بالكثير من الحصون وأبراج المراقبة وغير ذلك من المنشآت الحربية ، ولهذه البلدة تأثيرها الخاص في النفس لبناياتها الحجرية التي تلتف ، وتبدو في بعض الأحيان جزءاً من هرم صخري كبير ، وكزت فوقه راية حمراء صغيرة ، لا تتجاوز حجم منديل السيدة . وقد وجدت من الصعب القول أين تبدأ البيوت أو أين تنتهي الصخرة ، أو ما اذا كانت مختلف الفتحات التي كنت أراها هي نوافذ لغرف الأدوار العليا ، أو مجرد كهوف في سفح التلة .

ويرتدي أهالي معامير ثياباً فضفاضة ويعتمرون عمائم ملونة ، ويتنكبون

الاسلحة باستمرار ، وترتسم على ملامحهم امارات الصرامة ، وكأن طبيعة الصخور المحدقة ببلدتهم قد تسللت الى ارواحهم ، وعكست عليها صلابتها .

وأخيراً اكتشفنا أنه لم يعد يفصلنا عن الجبل الاخضر ، سوى سلسلة او سلسلتين من الجبال ، كانتا تقعان فوقنا مباشرة ، ورأينا عن بعد ، وسط بساتين النخيل ، الصخرة المستديرة لبرج قلعة « فرق » التي انطلقت منها تلك الطلقة التذكارية . اذن فنحن في طرف معقل الامام الحصين ، وعندما ضربنا خيامنا لنبيت تلك الليلة ، تساءلت في قرارة نفسي ، ترى كم عدد الذين سيقدمون الولاء غداً وكم عدد الذين يعدون بنادقهم في التلال المحيطة بنا !

وكان ثمة رجل من الاعيان ، طويل القامة ، يرتدي ملابس بيضاء ، يعتمر عمامة ذات أطراف تتدلى على وجهه الذي ترتسم عليه امارات الكبرياء ، وكان هذا هو وزير خارجية السلطان ، وهو بريطاني ، كلف بان يرأس لجنة تحكيم للبت في خلاف تجاري ؛ وقد خلف هذا الرجل برترام توماس في ذلك المنصب ، وكان يعيش في مسقط ، ولكنه أسرع بالحضور الى فرق بالطائرة ، حيث هبط في مطار خارج البلدة ، ويحمل كاميرا قديمة الطراز ، التقط لنا بوساطتها فيلماً لوصولنا ، وغالباً ما كان يعود الى خيمته ، ليصدر بلاغاً بلغة هي أقرب ما تكون الى لغات القرون الوسطى ، شارحاً فيه ، تقدم السلطان في رحلته .

واستيقظت قبل بزوغ الفجر ، على ضوضاء خارج خيمتي ، وتناهى الي صوت عدد من الناس يتحدثون بالعربية ، فنزعت نفسي من فراشي ،

وكنت قد اثقلت غطائي نظراً لبرودة الطقس في تلك الليلة ، وتوجهت الى مدخل الخيمة في الوقت المناسب ، لارى أعداداً من العرب يعتمرون العمائم ويرتدون الاثواب الفضفاضة ، ويتنكبون البنادق ، ويتجهون نحو خيمة السلطان . وانتابني شعور للوهلة الاولى بأن ثمة خطراً على وشك الوقوع ، غير أن الطريقة التي كان يتحدث بها أولئك الناس جعلتني أطمئن الى أنهم اصدقاء لا اعداء . ولكنني استغربت كيف سيقابلهم السلطان في هذا الوقت المبكر ، وهو من عادته أن يتناول الشاي والبسكويت في فراشه ، ولما أفهم القوم بأنه ينبغي عليهم الانتظار ، تراجعوا عن الخيمة واجتمعوا في حلقة كبيرة ، وجلسوا على الارض ، بانتظار نهوض السلطان من فراشه !.

ولما تناولت طعام افطاري ، وارتديت ثيابي وخرجت ، رأيت اولئك الاعراب ما زالوا جالسين في أماكنهم بصبر ، وقد انضم اليهم الوالي والقاضي وشيخا قبيلة بال وهيبه . وكان الجميع متربعين ، وبنادقهم مصوبة الى السماء ، يحدقون أمامهم دون ان ينظروا الى هدف معين . ولاحظت أن وجوههم تنم عن مرضهم ، اما أجسامهم فكانت محنية وناحلة ، وبينهم عدد احدودبت ظهورهم وآخرون اصيبوا بالصمم ، وأحدهم أعمى كان يتلمس طريقه بين الجمع . وتوسط الجمع عدد من الاطفال ، تميزت اجسامهم بالنحول والقذارة ، أما أعينهم فكانت تبرق بشدة ، معلنة عن ذكاء خارق . وكذلك رأيت عدداً قليلاً من النساء بملابسهن السوداء يقفن على بعد من الرجال ، ولكن أصواتهن كانت في بعض الاحيان تقطع حبل الصمت الذي يخيم على المنطقة . وعلى كل حال فبامكاني القول ، إن الناس الذين تجمعوا في ذلك الصباح كانوا عبارة عن جماعة حزينة .

ومرت الساعات ، والسلطان يشغل نفسه ، وربما ليظهر لهؤلاء الناس عظمته ، وكان عدد من القادمين الجدد ، ينضمون الى الجمع المنتظر ، وجاء شيخ يرتدي ثياباً فاخرة ، ويمتطي جملاً ، وحوله عدد من الخدم يسعون حوله ، وافسح له القوم مكاناً الى جانب الوالي ، بينما كان يشق طريقه الى الحلقة متكئاً على عكازين . ثم جيء بالقهوة ، وأديرت على الموجودين ، ومن عادة العرب ، على الطريقة البدوية ، أن يحملوا قدحهم مستقيماً اذا أرادوا مزيداً من القهوة ، أو يحركوه يميناً ويساراً اذا ما شربوا ما فيه الكفاية .

وفجأة ، وصل رسول ليعلن أن السلطان مستعد لاستقبالهم ، فهبوا وقوفاً على اقدامهم ، ممسكين ببنادقهم ، وراحوا يصلحون ثيابهم ، ثم تحركوا باتجاه الخيمة ، يتقدمهم الوالي ، وشيخا قبيلة بال وهيبة ، وكانوا يمشون بأنفة وكبرياء ، ويبدون وسط هذه الزمرة من الناس ، على جانب من الجراءة ، لم أره عندهم في أي وقت مضى . وأخذت أراقبهم وهم يغذون السير ، وفجأة خرج السلطان من خيمته ، وكان يرتدي ثوبه الزاهي الالوان ، وسيفه يتدلى من وسطه ، وحوله عدد من أقرب المقربين اليه

وجاءني أحد الضباط وقال : « يستحسن أن تستقلوا معنا السيارة الامامية ، حتى اذا ما اطلقت النار علينا ، قتلتم أولاً » . وهكذا كنت عندما تحركنا نحو فرق استقل السيارة الاولى ، وتتبعها السيارة حاملة الراية الحمراء ، وكان يستقلها الدليل البدوي الذي بدا شديد اليأس ، ويشكو من ألم في أحد أضراسه ، ثم سيارة السلطان ، فبقية السيارات . وقد حياه الجمع الذي كان محتشداً قرب مخيمنا مودعاً . ولاحظت ان

الجمع تأثر لرأى السلطان ، ولعل من الانصاف القول انه تأثر اكثر لما رأى من قوة عسكرية هائلة . وكان الشعور السائد لدى الجميع هو أن بعض شيوخ القبائل ، لا بد وأن يحرضوا رجالهم للقيام بهجوم مضاد على قواتنا ، أو – على الاقل – محاولة اغتيال السلطان .

وكان قد عرف أن الامام عاد الى قريته التي تقع في مكان ناء في الجبال ، حيث أخلد للهدوء ، لعجزه عن القيام بأية حركة ، غير أن شقيقه ، الذي كان يسميه الوزير – الشيطان الذكي – كان ما يزال حراً طليقاً . والحقيقة أن في تصرفات هذا الرجل من الاقدام والبسالة ، ما جعلني أحسب له ألف حساب ، فهو الذي أشرف بنفسه على قيادة المعارك الضارية التي نشبت في الطرف الثاني من الجبال ، واستطاع ، عندما سقطت قلعته الرئيسية هناك ، أن ينسحب بما يشبه المعجزة ، آخذاً معه عدداً من صناديق الذهب ، الامر الذي حدا بحكومة السلطان الى الاعلان بان كل من يقبض عليه سينال مكافأة سخية ، بالاضافة الى ما يحمله من كنوز (وهو إعلان لا يسعني الا ان اعترف بسخفه) ولكن طالباً تمكن من الاختفاء كلياً في الجبال ، سالكاً ممراتها المجهولة . وكانت آخر شائعة عنه تقول بأنه غادر شاطىء « بطينة » على ظهر مركب ، وهو الآن في طريقه الى المملكة السعودية بحراسة مراكب مسلحة ولنشات مسلحة الجارك السعودية .

وهكذا كانت الحروب القبلية الداخلية ، تدمر تاريخ عمان ، حتى باتت كل بلدة تحصن نفسها ضد جارتها ، وفي بعض الاحيان كانت المنازل تحصن أيضاً ، على غرار بيوت بارونات سكوتلندا (واعتقد بأن سكان المرتفعات في عمان ، لهم خصائص كثيرة مشتركة مع السكوتلنديين ، في

الطرف الآخر من العالم) حتى ليعتقد المرء ، وهو يقترب من مكان مثل فرق بعد أن يمر بنقاطها الحصينة الكثيرة ، ومراكز المراقبة العديدة ، بانه يقترب من خط « ماجينو » . ولكن هذه الحصون كانت خالية من الجنود ، وترفرف على الحصن الرئيسي راية حمراء تبعث الاطمئنان في النفس .

وكان اليوم صافياً بشكل غير عادي ، فرأيت الجبال من فوقنا واضحة المعالم ، وهي غالباً ما تكون مغطاة بالضباب ، وكذلك رأيت بساتين الرمان والموز والبرتقال ، وبدت بلدة فرق لناظري جميلة ، في حلتها السندسية وسمائها الزرقاء . ولاحظت أن معظم سكان البلدة يجلسون في شرفات دورهم أو يقفون امام بيوتهم ، غير مبالين بما يجري في بلدتهم ، ولا بالسلطان الذي يمر بها ، حتى ليعتقد المرء بانهم سكان مستعمرة نائية . ولم نتوقف في شارع البلدة الضيق ، بل عبرناه وتوجهنا إلى « نزوة » .

ومن الطبيعي ان يكون موكبنا مثيراً وملفتاً للانظار ، خاصة بعد أن انضم الينا الجنود الذين سبقونا . وعندما عبرنا احد الوديان ، وكان مليئاً بالمياه العذبة ، تطلعت الى الوراء ، فرأيت السيارات تغوص في المياه لتقطع الوادي ، ثم تمر باشجار النخيل ، وتسير عند سفوح الجبال التي كانت تغطيها سحب ضباب ابيض . وعندما اقتربنا من عاصمة الامام ، التي تقع وسط بساتين غناء ، لاحظت ان عدد الذين يقفون على جانبي الطريق قد ازداد ، وازداد بازديادهم الشعور بالتوتر ، واخيراً وصلنا إلى واد جاف ، وبعد أن قطعناه وصلنا الى المدينة ، ورأينا قلة من الناس ينتظرون وصولنا ، وعدداً من النساء يرتدين ملابس برتقالية اللون ،

يقفن بمجتمعات حتى بدا منظرهن ككومة كبيرة من البرتقال .

وعند أعلى الوادي ، تقع نزوة الحصينة ، والتي تعتبر اقوى قلعة في عمان ، وفجأة دوى انفجار من أحد مراكز المراقبة فيها ، وكان صوت الانفجار أشبه ما يكون بصوت مدفع برتغالي أثري ، لعله تُرك في عمان قبل ثلاثة قرون ، عندما كان البرتغاليون يحتلون البلاد . وعلمت فيما بعد ان الانفجار كان للترحيب بنا ! ولكن كمية البارود التي وضعت في المدفع كانت كثيرة فلم تحتمل ماسورة المدفع شدة الانفجار فتحطمت ، وأصابت شظاياها أحد المتفرجين بجراح خطرة ، ولم يأبه الجنود للحادث ، بل انتقلوا الى مدفع آخر ، وراحوا يطلقون قذائفه واحدة بعد الأخرى ، حتى خيّل إلي أن القلعة ، رغم متانتها ، ستدمّر من شدة الانفجارات وتسقط على رؤوسنا . وكنت ارى على طول الطريق ونحن نصعد الوادي ، رجال القبائل متجهمي الوجوه ، يتنكبون بنادقهم ، ويصيحون – اعتقد صيحات ترحيب بنا – فتختلط صيحاتهم بدوي سياراتنا وأصوات ابواقها وهدير المدافع ، ولما اقتربنا من القلعة ، كان برجها محاطاً بطبقة كثيفة من الدخان ، ذكرتني بالمعارك البحرية القديمة .

ونزل من القلعة عدد من الشيوخ ، كانوا يمشون بصعوبة ، بينما ترجل السلطان من سيارته المغطاة بالأتربة ، وكأنه امبراطور كبير بعمامته المتعددة الألوان وعباءته المذهبة الأطراف وقبضة سيفه الذهبية التي كانت تلمع تحت اشعة الشمس . وقد كتبت في مذكراتي هذه الملاحظة : « رائع جداً ! » ففي ذلك اليوم وصل سلطان مسقط لأول مرة في التاريخ إلى عمان !.. واستغل سعيد بن تيمور هذه المناسبة لفرض سيطرته .

وفي اقل من لحظة كان السلطان قد اختفى وسط رجال القبائل الذين كانوا يقتربون منه ، ليقدموا له الاحتجاجات ، والولاء غير المخلص ، ولم أعد ارى غير خضم من بنادق وأعلام ولحى وعمائم ، وأخيراً رأيته يصل الى الدرج المفضي الى القلعة فيصعده مسرعاً ، ثم يختفي في الداخل . وفي تلك الاثناء كنت قد ترجلت من سيارتي ، وشققت طريقي وسط جمع من الفضوليين ، بينهم عدد كبير من الاطفال الذين يحملون بنادق كبيرة بشكل غير مألوف . وتقدم كولونيل انكليزي مني ، ومدّ لي يده مصافحاً ، وساعدني على تسلّق درجات القلعة ، التي كانت تغص بعدد كبير من شيوخ القبائل ، ثم قال : « يا لسوء الحظ ! لقد نسيت أن انزع غطاء الكاميرا في آخر صورتين » . وأبديت له أسفي لضياع الصورتين عليه ، وكنت في أوائل رحلتي قد التقطت ست او سبع صور ، قبل ان اكتشف ان الكاميرا خالية من الفيلم . وأخذت أشق طريقي مستخدماً يدي ، بغية الوصول الى بوابة القلعة ، وهناك رأيت مدفعاً برتغالياً (قيل إنه أحضر من جزيرة هرمز ، المعقل الحصين عند مدخل الخليج العربي ، والذي وصفه من زاروه في القرن الخامس عشر بأنه ميناء لا مثيل له في العالم) . وكان واضحاً ان الجنود الذين احتلوا القلعة بالغوا في اظهار ولائهم للسلطان ، فملأوا ساحة القلعة بالأعلام ، وتجمع تحتها عدد من الأعراب ، بين مسنٍ وشاب ، جاؤوا كلهم من اماكن نائية ، ليعقدوا تحالفاً مع السلطان .

وكان بعضهم يجلس في حلقات وبعضهم يجلس فوق براميل البارود ، وآخرون يسيرون في ارجاء الساحة ، فرادى وجماعات ، بينما اجتمع آخرون امام باب خشبي كبير ، وراحوا يحاولون الدخول الى ما وراء

الباب عبثاً ، ولاحظت انهم كأهالي فوق فقراء واجسامهم ناحلة ، واغلب الظن انهم مرضى ، ومعظمهم يعاني من مختلف أمراض العيون ، كما رأيت بينهم اكثر من أحدب !..

ولاحظت وأنا اشق طريقي بين هؤلاء النـــاس ، ان بعضهم ليس وديـاً ، إذ كانوا يـديرون لي ظهورهم ، ويدمدمون بشتائم قبيحة . واستطعت اخيراً ان اصل الى احدى الغرف ، في طرف الساحة ، لها نوافذ تطـــل على الشارع ، ويجتمع فيها – رغم لذعات الذباب التي لا تحتمل – عدد من شيوخ القبائل .

وسألتهم : « أين السلطان ؟ »

فأجاب أحدهم : « إنه في الداخل .. إقرع الباب وسيفتح لك فوراً » !

فقلت : « ولكن هؤلاء الشيوخ قد كلت سواعدهم وهم يطرقون الباب ، دون ان يفتح ! »

فرد بقوله : « لا بأس .. صح بصوت عالٍ : افتـــح للصاحب ، وسترى المعجزة تتحقق ! »

وشكرته ، ثم شققت طريقي الى الباب ، وشد ما كانت دهشتي عندما رأيت الشيوخ الذين يحتشدون امام الباب ، يفسحون لي الطريق ، وصاح أحدهم قائلاً : « يا حارس الباب .. افتح حالاً للصاحب ! » . وبالفعل فتح الباب فوراً ، ولم يحاول أحد ان يندفع الى الداخـل عندمـا اجتزته ، ولكن الرجال الغريبين ، استغرقوا في الضحك ، وربت بعضهـــم على كتفي ، ثم انتظروا حتى اعيد إغلاق الباب من جديد ، فاستأنفوا إلحاحهم في طلب الدخول .

ولم اجد السلطان في الداخل ، كما كنت اتوقع ، بل وجدت سلسلة من الممرات المظلمة ، لا يدخلها النور الا من فتحات صغيرة في سقوفها ، وهذه الفتحات لا تسمح لغير خيوط من أشعة الشمس بالتسلل الى الداخل ، فتضفي على المكان جواً شاعرياً . وتقدمت في هذه الممرات ، لأجـــد نفسي في ساحة داخلية صغيرة ، وفيهـا عـدد آخر من الشيوخ يقرعون بابها ضاحكوا وصاحوا : « افتح يا ابن الكلب ، ان الصاحب يريـــد الدخول ! .. » ولما فتح الباب ، تراجعوا الى الوراء ، وكان للحارس وجه متجهـــم يبعث الرعب في النفوس ، كما كانت له نظرات نفاذة ، استطعت ان اتجنبها باحناء رأسي لكي ألج الباب الصغير الى الداخل .

وكان وزير مسقط يدير آلة تصوير سينمائية ، ويتحدث الى قائد قوة ميدان مسقط وعمان ، وهو ضابط بريطاني سابق في الجيش الهندي ، قيل إنه يتحلى بأخلاق حميدة . ولما سألته عن السلطان قال : « إنه فوق ، وبامكانك ان تلقي نظرة عليه .. ولكن احذر الدرج إنه ضيق جداً » .

وصعدت درجاً يكاد المرء وهو يتسلقه ان يسقط على ظهـره ، وكان السلطان يجلس في قاعة طويلة محلاة بالنقوش ، وامامه في شبه مستطيـل كبير عدد من شيوخ القبائل ، في ايديهم البنادق والعصي ، وقد ران عليهم صمت غريب .

وبدا لي السلطان شخصاً غير الذي عرفته ، وهو يجلس ملحلحاً اطراف عباءته حوله ، وينظر الى الشيوخ نظرة لا تخلو من كره وبأس ، وعلى شفتيه ابتسامة تنم عن تشككه في ولائهم له . امـــا الشيوخ فكانوا كالأصنام ، لا يتحركون ، حتى ولو لطرد اسراب الذباب التي كانت

تشبعهم لسعاً مؤلماً .

وقرر السلطان ان يتخذ مقره خارج نزوة فاختار سهلاً فسيحاً يقع على بعد ميلين الى الشمال من المدينة ، وهذا السهل محاط بالتلال ، وكأنها مراكز دفاعية تحرسه . وفي هذا السهل ، اوقف الجنود سياراتهم ، وهناك انشأ جنديان انكليزيان ، محطة لاسلكية صغيرة ، وهناك ايضاً نصبت خيمة السلطان .

وقيل لي إن قوات هارون الرشيد قد ضربت خيامها في ذلك السهل أثناء الحملة التي شنتها على عمان قبل الف ومائة سنة ، وفي ذلك السهل كذلك ، كان سكان عمان يجمعون ابلهم وخيولهم وبنادقهم ، لملاقاة اولئك الذين كانوا يغيرون عليهم ، على مر الأجيال . وخيّل الي ان اكثر من ألف معركة نشبت هناك ، ومع ذلك فقد داخلني شعور بان الذين قتلوا في هذه المعارك ، لم يكن كبيراً .

وفوق السهل مباشرة ، يقع الجبل الأخضر ، مطلاً على بساتين النخيل ، ولكنني لم ألاحظ ان اسمه ينطبق على حاله ، بل لعل العكس هو الصحيح ، اذ انه جبل مقفر تكثر فيه الصخور ، والصعود اليه يتطلب مهارة في تسلق الجبال ، ويبلغ ارتفاعه حوالي عشرة آلاف قدم ، وهو بذلك من اعلى جبال شبه الجزيرة العربية .

وحدثني بعض العرب هناك ، بانهم رأوه ذات مرة مغطى بالملح .. واعتقد انهم يقصدون الثلج لا الملح .. والثلج قلما يحل هناك ، إلا خلال اسابيع الشتاء الشديدة البرودة . ولما القيت نظرة على الخارطة ، وانا مستلق في فراشي . خيّل الي ان جبال عمان ، هي امتداد لجبال

« زاغروس » الايرانية اذ لا يفصل بينها سوى مضيق هرمز . وفي الواقع لم يكن هذا الافتراض صحيحاً ، اذ ان علماء الجغرافيا اثبتوا ان السلسلتين غير متصلتين ، وان جبال عمان تمتد باتجاه الجنوب الشرقي نحو البحر .

وفي تلك البقعة ، استقر السلطان ، وبدأت مراسم استقبالات ووداع دامت يومين ، كان خلالهما منهمكاً في تدعيم نفوذه الجديد ! ونصبت الخيام بعد الظهر ، وقبل موعد الشاي ، تفقد السلطان جنود جيشه الصغير ، الذين جمعوا في مربّع ، وقف الضباط الانكليز في وسطه ، حيث قام اسماهم رتبة باعطاء الاوامر والايعازات ، بينما اعد الوزير الانكليزي الكاميرا ، وفي تلك الأثناء ، سمعت اصوات ضحك وعبارات استهزاء . اما في السهل فقد كان كل شيء هادئاً عندما تقدم السلطان ليخاطب جنوده ، بلغة عربية فصحى ، وكان صوته يرتفع وينخفض حسب المعنى ، وكم كان سروري عندما قدم لي احد الجنود ترجمة الخطاب ، وكان هذا الجندي يتقن اللغة الانكليزية التي تعلمها في احدى مدارس التبشير في مسقط .

وانتهى الاحتفال بوعد من السلطان بمنح الجنود راتب شهر اضافي ، ثم ابتعد الجنود غاضبين ، اذ انهم كانوا يفضلون لو ان السلطان منحهم علاوة ثابتة على رواتبهم . والجدير بالذكر ان الجندي يتقاضى راتباً يقل عما يأخذه حمال في شركة البترول ، كما ان بعضهم كان حافي القدمين ، وبعضهم لا يكاد يستر جسمه اي شيء على الاطلاق .

وخلال اليومين اللذين استغرقتهما الاحتفالات ، منحت نفسي اجازة ، زرت خلالها ميدان المعارك القديمة ، متسكعاً تحت اشجار النخيل التي

تحيط بالسهل ، كما زرت المرتفعات التي تطـــل عليه من كل جانب والحقيقة ان هذه المنطقة كانت منطقة عذراء بالنسبة للغربيين ، بالاضافة الى انها خصبة وجميلة ، وبـــلدة نزوة تسيطر على مفترق مهم للطرق التجارية ، كما تشرف على الممر المؤدي الى الجبل الأخضر ، ولعلهـــا بجداولها الاربعة اكثر مدن عمان وفرة من حيث المياه ، أضف الى ذلك انها مركز تاريخي ، فهي مقر الامام ، او من كان يحكم عمان ، على مر الأجيال ، منها يدير معاركه ، ومنها يصرّف امور حكومتـــه . واشجار النخيل هناك يانعة ، ووواديها عامر بالمياه ، حتى لتبدو من على زرقاء متلألئة . وتشرف قلعتهـا المستديرة التي بنيت في القرن الخامس عشر ، على شوارع البلدة العتيقة ، وتمتد صفوف بيوتها – وهي مربعة الشكل – على جانب الوادي .. الا انها لا تشبه البيوت المبنية عـــلى جانب قناة امستردام .

وبعد ظهر اليوم الأول ، تسلّقت الجبل الى القلعة التي تحرس مخيمنا ، ولم ار أي اثر للحياة فيها ولكنني ما إن وصلت الى سفح التـــلة التي تقوم القلعة فوقها ، حتى فتح باب غير منظور ، واطل منه جندي ذو لحية كثّة ، ثم خرج لتحيتي وقال : « اهلاً بك .. تفضل وشاهـــد قلعتنا ! » وطبيعي انني قبلت الدعوة بكل سرور ، ووجدتهـا ليست حصينة فحسب ، بل وحسنة التصميم والتنظيم ، وفيها كل ما تحتاجه قلعة نظيرها ، ويفضي الباب الى ممر صغير محفور في الصخر ، ووراء هذا الممر يمتد نفق لولبي مظلم يفضي الى الطابق العلوي ، فينبغي عليك ان تتسلق جبلاً . وحاولت جاهداً ان اتسلقه ، فكنت أتأرجح ذات اليمين وذات اليسار ، ونظرت الى اعلى فوجدت فتحة .. وفكرت في الزيت المغلي

الذي يصب في حالة تسلل احد من الأعداء على رؤوسهم ، وفجأة رأيت فوقي شكلاً ضخماً ، ظهر فيما بعد أنه جندي عربي ذو لحية كثة ، وكان يحدق فيّ من أعلى الفتحة ، وضحك ثم قال : « حسناً انه ليس سميناً مثل الميجور قائد قلعتنا ! » – واعتقد بان هذا الجندي كان يسخر من قائده عندما يحاول تسلق الجبل – . ولما وصلت اخيراً الى أعلى ، وجدت جيوشاً من الذباب لا يمكن تصورهـا .. وكان الذباب يسبح في الهـواء كالسحب ، ويغطي كل شيء ، حتى اذا ما حط على خزائن المؤن ذات الابواب الصفراء ، انقلبت الى ابواب سوداء اللون . ومع ذلك كان المنظر عبر الوادي رائعاً ، فبلدة نزوة محاطة باشجار النخيـــل ، وتقبع تحت القلعة ، اما فوقها فكانت الجبال الشاهقة ، ولما نظرت إلى الغرب ، خيّل الي أنني ارى شريطاً رفيعاً من الربـع الخالي .

اعتقد انه ليس بمقدور احد ان يحتل هذه القلعة ، وكذلك اكّد لي جنودها صدق اعتقادي ، وهم يحدثونني عنها ، بينما كانوا ينظفون بنادقهم ، وعلى وجوههـــم امارات الحزم . ويوجد في القلعة زاد وماء وذخيرة وسلاح ، وقد اشاروا الى باب صغير في احد الجدران ، يرتفـع اربعين او خمسين قدماً ، وقيل لي انه يستعمل كمرحاض القلعة .. وهكذا كانت القلعة تحوي كل ما هو ضروري للدفاع عنها ، الأمر الذي يكشف عن ذكاء مصممها ، وتحدثت الى الجنود مدة دقيقة او دقيقتين ، ثم علّقت الكاميرا في عنقي ، وانزلقت على الحبل الى اسفل ، ولما صفق البـــاب ورائي ، وخرجت الى الهواء الطلق ، عادت القلعة تبدو لي خالية من كل اثر للحياة ولكنني ما شككت أبداً ، في ان جنودها على استعداد دائم لاستقبال كل متطفل عليها بما يليق به من شتائم وزيت مغلي .

وفي المساء زرت فلوج البلد الرئيسي ، وهو يجري عبر ارض منبسطة الى خارج البلدة ، وتقوم على جانبيه مجموعة من البيوت الحجرية ، بعضها مساجد ، وبعضها حمامات ، وبعضها قلاع صغيرة لحماية الفلوج . وتجري قناة الماء تحت الأرض ، ممتدة من منابع الماء في الجبال حتى اسفل البلدة ، غير ان هناك ثلاث او اربع فتحات ينزل اليها بوساطة بضع درجات لاستقاء الماء ، او غير ذلك من الشؤون .. واخترت احدى هذه الفتحات وهبطت الدرجات بحذر حيث رأيت مياه الفلوج تتدفق ، اما فوق رأسي ، فقد كانت السماء زرقاء ، وتذكرت وقتئذٍ القناة المعروفة في اوكسفورد والتي تدعى « جدول تريل ميل » ونزعت ثيابي واستلقيت في الماء فأحسست بسعادة غامرة ، ولما كان الليل هادئاً ، فقد استطعت ان اسمع عبر القناة أصوات نساء وفتيات ، اغلب الظن انهن كن يغسلن ملابسهن ، او يتبادلن الأحاديث ويضحكن ، لا يزعجهن شيء سوى صدى ضحكاتهن . والغريب ان المياه كانت ساخنة ، وفيها مئات من الاسماك الصغيرة التي كانت لا تني تداعب أطرافي .

ويقال بأن لمياه نزوة خصائص طبية ، ومن المؤكد ان هذه الخصائص قد تركت اثرها علي ، اذ انني بعد ساعة او ساعتين ، كنت ارقد في خيمتي بلا حراك ، اشعر بآلام لا تطاق ، وشكرت حسن حظي لانني لم اكن في مهمة في تلك الليلة عند اعلى القلعة مثلاً .. ووجدني الطبيب لهندي المرافق لقوة ميدان مسقط وعمان على هذه الحالة ، فأمرني بألا آكل اي شيء على الاطلاق ، ثم اعطاني خمس عشرة حبة ، طلب الي ان ابتلعها واحدة اثر الاخرى ، وتمنى لي « عيد ميلاد سعيد » وانصرف — وكنا في عشية عيد الميلاد — فاذا كان هذا ما جرى لي ، انا الرجل

القوي ، بعد ربع ساعة من الاستلقاء في مياه الفلوج فلا شك في ان حالة السمك الذي يعيش فيه ، لا بد وان تكون اسوأ من حالي بمرات .

ومع ان الكثيرين من شيوخ القبائل جاؤوا لتحية السلطان ، الا ان اقواهم واعزّهم واشدهم بأساً ، سيد الجبل الاخضر ، سعيد بن حمير ، لم يحضر بعد ، ولكنه بعث برسول ليقول للسلطان بأنه مستعد للتسليم ، ولكن بطريقته الخاصة ، التي يراها كافلة لكرامته . اما ماهية تلك الطريقة ، فلم يكن احد يعرفها ، ولذا ظل الجنود ينتظرونه . اما الامام غالب وشقيقه طالب ، فقد اعتبرا ما قام به السلطان بمؤازرة بريطانيا ، احتلالاً غير مشروع لبلدهما ، وأعلنا انه حكم استعماري جديد ، فأعلنا الحرب على بريطانيا وعلى السلطان ، وايدهما في ذلك عدد من شيوخ القبائل ، وخاصة الشيخ سليمان ، شيخ « بني ريام » حاكم الجبل الاخضر بلا منازع .

ويعيش هذا المحارب القوي الشكيمة في قلب الجبال ، وباستطاعته ، اذا اراد ان يقاوم السلطان مقاومة ضارية ، ان يدحرج صخوراً كبيرة على وادينا ، اما النقطة التي يعيش فيها على وجه التحديد ، فغير معروفة ، كما ان الممرات الصخرية القليلة التي تؤدي الى قلب الجبال ، لا تصلح للسيارات (والجدير بالذكر انه لم يسبق لأي جيش منظم ان عبر هذه المرتفعات سوى الجيش الفارسي ، الذي شن هجوماً كبيراً على الجبل ، في القرن العاشر ، وتكبدت قواته خسائر فادحة ، قبل ان تصل الى ارتفاع تسعة آلاف قدم . والغريب ان الكثيرين من الجنود الفرس ، أعجبوا بالمكان رغم المقدمة الدموية التي قادتهم اليه ، فاستقروا في سفوحه وما يزال نفر من احفادهم يعيشون هناك حتى الآن) .

وفي سنة ١٩٥٠ قابل « ويلفرد ذي سيغر » الشيخ سليمان بن حمير ، ووصفه بأنه « قوي الشخصية ، ان لم يكن خارقها » . وهو من غير شك رجل خلوق ، عرف عنه انه اقل تطرفاً من اسلافه واوسع ادراكاً وبلغ من القوة درجة جعلته يقف على قدم المساواة مع الامام . وعرف عنه كذلك انه رجل يتمسك بالمبادىء ، ولذلك اعتبرته اخطر اعداء السلطان ، فقد كانت كلمته هي القانون السائد في منطقة الجبال ، ويرد ذكره كلما جرى الحديث عن مسقط ، على اعتبار انه سيد منطقة منيعة .

ولهذا السبب ، كنا نرقب الجبال آملين ان نرى قافلة من الجمال تتقدم نحونا ، ترفرف امامها راية الامامة . ووصلتنا بالفعل معلومات تفيد ان سليمان بن حمير يستعد للقيام بمثل هذه الحملة ، وان اتباعه قد يشنون علينا هجوماً في اي وقت ، وعلى الأثر استيقظ الجنود ، وابلغت مراكز المدفعية بأن تستعد ، وحصن رجال القلعة ابوابهم ، وراحوا يحدقون في الظلام ، علهم يرون احداً يتسلل . ولكن شيئاً ما لم يحدث . وكان القادم الوحيد في الصباح الباكر ، فتى جاء يقدم ولاءه ، وجماعة جاء افرادها يطلبون الفصل فيما بينهم من خلافات .

واخيراً وصل سليمان بن حمير فجأة ، وبطريقة فريدة ، ففي اليوم التالي ، وفي ساعة مناسبة حوالي منتصف النهار ، رأينا عموداً من الغبار يقترب منا من جهة الجبال ، ولكنه يختلف عن تلك السحب من الغبار التي كنا نراها خلال الايام القليلة الماضية ، معلنة قدوم قوافل الجمال . وخيّل الينا ان مصدر هذا العمود من الغبار ، اما ان يكون جماعة من الثوار تبغي مهاجمتنا ، واما ان يكون ظاهرة طبيعية مألوفة في الجبل الاخضر ، غير انه لما اقترب العمود منا ، وبات بمقدورنا ان نرى ما في

وسطه ، وجدنا الامر اعجب مما كنا نتصور . فقد تكشف الغبار عن سيارة اميركية حديثة قوية ، ولم يكن ليخطر ببال اي كان ان هذه المنطقة النائية توجد فيها سيارة ، واعتقد جازماً بأن سيارة سليمان هي الوحيدة ، ولعله اشتراها من المملكة العربية السعودية ، وكان منظرها وهي تنحدر من الجبال وتتقدم نحونا ، منظراً مثيراً للغاية ، فقد كان سقفها مقفلاً ولكن نافذتها الخلفية مفتوحة ، ويجلس فيها عبد نحيف المظهر ، يمسك بيده بندقية سريعة الطلقات ، وما ان توقفت السيارة ، حتى قفز العبد الى الارض بأسرع من البرق ، وفتح باب السيارة باحترام بالغ ، فترجل منها ثلاثة شيوخ ، راحوا ينفضون ثيابهم الثمينة من الغبار ثم حملوا اسلحتهم .

واثنان من القادمين في سن الشباب ، وربما كانا يعملان كمساعدين للشيخ الثالث ، الذي كان يسير وراءهما ، كملك تتقدمه حاشيته ، وكان هذا هو سليمان بن حمير نفسه ، وتواكض عبيد السلطان في ملابسهم الزرقاء وأرجلهم الحافية لملاقاتهم : وطلبوا منهم الانتظار ، وذهبت الى حيث يقفون وحييتهم ، وسأظل ما حييت اذكر تلك اللحظة . وسليمان رجل ضخم ، ذو وجه صارم التعابير ، ولحية وخطها الشيب ، يعتمر عمامة زرقاء مذهبة الاطراف وفي يده مسدس ضخم ، وعلى وسطه خنجر عماني رائع النقوش ، لم املك نفسي من ان احسده عليه . واعرب عن رغبته في ان التقط له صورة ، وبينما كان يستعد للوقوف امام الكاميرا ، وردت رسالة من السلطان تفيد انه بانتظاره ، فسار سليمان وراء الخدم وعلى وجهه تعبير لا ينم عن الخوف مطلقاً . واذكر ان خادمي قال لي بأن سليمان لن يخرج من الخيمة حياً ، حرصاً على مصلحة السلطان ، ومصلحة

منطقة الاسترليني – بريطانيا – نظراً لما يحتمل ان يرتكب من شرور .. ولكنني سررت في الحقيقة لما رأيته يغادر خيمة السلطان بعد فترة وجيزة ، ويستقل سيارته ويعود من حيث اتى ، وقد خفّت التعابير الصارمة التي كانت مرتسمة على وجهه ، ولكنني كنت متأكداً من ان هذا التغيير ليس سوى حالة مؤقتة .

وحلّ عيد الميلاد ، فتوجهت الى خيمة السلطان لاتمنى له السعادة ، فوجدته يجلس هناك ، يضخ لحيتـــه بالطيب استعداداً لحضور استعراض لجنوده نصف الحفاة ونصف العراة .

– ٦ –

« دليل مفيد – بلاغات – في الطريق الى إبري – مكان ممتع – جندي مسيحي – طيش وحماقة محاولات التقرب – حفلة كبرى – البريمي – ساعات – اجتماع ملكي » .

وهكذا استتب الامر للسلطان ، وسواء اكان حكمه قائماً على اساس من الشرعية ، او على اعتبارات الامر الواقع ، فقـــد بات هو الحاكم الذي عليـه ان يواجـه الثـوار الذين رفضوا الخضوع له وللمستعمرين ، واعتصموا في الجبال يذودون عن حماهم ، ويطالبون بحقوقهم المغتصبة . وحدث ذات يوم ان توفر للسلطان الدليل على صحة الشائعات التي كانت تتردد آنذاك حول نشاط السعوديين في عمان ومساندتهم للثوار . فقـد ذكر كبير جنود الامام غالب (وكان مـا يزال يرأس قوة من الجنود فوق قلعة نزوة) ان اكثر من مائتي بندقية وصلت الى الامام قبل شهر او شهرين ، ومعها حوالي ستين الف طلقة ، وقال ان كميات مماثلة تهرب عبر الجبال من الساحل الشرقي ، وكميات اخرى تصل الى نزوة عن طريق

« البريمي » . وكان احد الاعراب قبل تحركنا نحو عمان بمدة قليلة ، قد وصل – لسوء حظه – الى البريمي مع قافلة من الجمال محملة بالبنادق والذخيرة ، مرسلة الى الامام . ولكن المسكين ، رغم انه عبر الصحراء عدة مرات ، لم يكن قد سمع باحتلال البريطانيين للواحة ، فتوجه الى البريمي دون ان يخامره شك في سلامة الطريق ، فاعتقلته القوات البريطانية ، وصادرت ما معه من اسلحة وذخائر ، ووجدت معه رسالة من الرئيس جمال عبد الناصر ، العدو الاول للغرب آنذاك ، والمقاوم العنيد لاطماعه في الشرق الاوسط ، والذي اسفر اتفاقه الاخير بصدد شراء الاسلحة من معسكر الدول الاشتراكية عن قلب ميزان القوى في المنطقة بأسرها ، وفي هذه الرسالة يعرب الرئيس ناصر عن تأييده للامام .

وعندما طلب الامام غالب الانضمام الى الجامعة العربية ، انضمت مصر الى المملكة السعودية في دعم طلبه ، ووعدت مصر بالنضال من اجل طرد الانكليز من منطقة الشرق الاوسط كلها واعادة الحق الى اصحابه في عمان .

وانتهز الوزير الانكليزي للسلطان الفرصة : فرصة مصادرة الاسلحة والرسالة ، فراح يصدر سلسلة من البلاغات ، كانت ترسل لاسلكياً الى البحرين ، ومنها تذاع على العالم . وفي احد هذه البلاغات اعلن الوزير ان « السلطان سعيد بن تيمور بن فيصل بن تركي » سلطان مسقط الثامن عشر منذ تأسيس اسرة ابي سعيد ايام سعيد بن سليمان بن احمد الامام ، قبل حوالي مائتي سنة ، والحاكم الحادي عشر لعمان ، وصل الى نزوة في التاسع من جمادي الاول سنة ١٣٧٥ هـ . الموافق للرابع والعشرين من كانون الاول سنة ١٩٥٥ م . ليتقبل الولاء من اتباعه المخلصين والخضوع

من اولئك الذين يتآمرون عليه » . وقال الوزير الانكليزي في بلاغ آخر « إن السلطان مستعد للعفو عن كل ثائر يقدم ولاءه ويسلم سلاحه ، قبل مغادرة السلطان نزوة ولن تتأخر مغادرته لها كثيراً » .

ونصّب السلطان شاباً من قبيلة « الحثيرة » – بعد أن أصبح رئيسها إثر اغتياله عمه ، الرئيس الفعلي للقبيلة ، وهو من مؤيدي الامام – ممثلاً له في نزوة وترك تحت تصرفه ثلاثمائة من الهجانة وفيلقاً من قوة ميدان مسقط وعمان ، على ان يرابط الجنود خارج البلدة ، وأن يكونوا على اهبة الاستعداد لمجابهة الطوارىء ، وأخيراً غادرنا نزوة في رتل من السيارات ، ولاحظت أن العرب الذين اصطفوا على جانبي الطريق لم يبدوا أي حماسة لمرور موكب السلطان . واطلقت مدفعية القلعة فجأة قذائفها ، فذعر سائقي ، حتى كاد في غمرة فزعه أن يقذف بنا إلى قعر الوادي . ورأينا الأهالي في فرق قد غامروا بالخروج من منازلهم إلى الشارع ، ولكنني لم ألمس اي نقص في حدة التوتر التي لمستها ونحن في طريقنا الى نزوة ، وعندما مررنا بقرية « المعامير » كان الأهالي يقفون كالحجارة إلى جانب الطريق ، ولم يبد أحد منهم أي مظهر من مظاهر الحماسة ، وإن كنت لم اشاهد أحداً يبصق على الأرض طوال الطريق من نزوة حتى بلدة عز . وكانت بلدة أدام كما شاهدناها في طريقنا إلى نزوة تكاد تكون مهجورة ، ولم نر غير خمسة من الأطفال ، أحدهم زنجي ، خرجوا ليتفرّجوا على موكبنا . وبعد مسيرة يوم شاق ، خرجنا من منطقة الجبال وسرنا في طريق بين المرتفعات والصحراء ، وتتجه نحو الشمال الغربي .

وتقع بلدة إبري على بعد حوالي سبعين ميلاً إلى الشمال من فرهود

وسط بساتين غنية بأنواع الفواكه . ولهذه البلدة تاريخ طويل ، فهي معروفة منذ القدم بأنها سوق اللصوص ، حيث يجدون فيها من يشتري ما يسرقونه من المناطق المجاورة ، وكذلك فان لها تاريخاً حافلاً في التعصب ضد الأجانب . وكان أول شخصين اوروبيين يصلان اليها ، ضابطان في البحرية هما « ويلستد » و « بقيلوك » وقد طردا منها شر طردة وقذفا بالحجارة ، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ . اما الثالث فكان الكولونيل « ميلز » الذي كاد يفقد كل ما يملك عندما داهمه اللصوص سنة ١٨٨٥ ، والشخص الرابع هو السير « بيرسي كوكس » ولكنه وجد أهالي المدينة قد تغيروا سنة ١٩٠٥ ، فاطلقوا عليه النار بعد مغادرته البلدة . وفي سنة ١٩٤٩ زارها « ذي سيغر » متنكراً في زي أعرابي عماني ، مغامراً بذلك بحياته فيما لو اكتشف أمره .

وكانت بلدة إبري مسرحاً للغارات القبلية التي تتميز بالعنف والضراوة ، كما كانت يوماً ما مقراً للمجرمين وأفراد العصابات ، حتى ان أهلها كانوا يخشون النوم داخل منازلهم ، ويفضلون قضاء الليل في العراء ، حيث لا يمكن تمييز رجل عن آخر في الظلام . وهي إلى ذلك ، البلدة الرئيسية لقضاء « ضهيرة » وهذا القضاء لا يكنّ أي ولاء للسلطان ، إذ أن أهاليه من « الوهابيين » وهي جماعة إسلامية تنتمي اليها الاسرة الحاكمة في المملكة السعودية ، ولذلك فان امرها كان يقلق السلطان ، فهي ليست بالارض المناسبة لحبك المؤامرات ضده فحسب ، بل وتعتبر مصدر خطر نظراً لقربها من الحدود . وكذلك فان البريطانيين أبدوا اهتماماً شديداً ببلدة إبري نظراً لانها تجاور فرهود ، ولذلك احتلت قوة الميدان البلدة ، ورابطت فيها فصيلة ، وها هو السلطان في طريقه اليها ، ليثبت لأهلها

انها باتت تحت سيطرته .

ومررنا عفواً ببعض القرى الصغيرة ، المحاطة بأشجار النخيل ، وكنت ارى من وراء اسوارها أناساً يلوحون بأعلام حمراء ، وأعتقد انهم من الموظفين ، وفي بعض الأحيان كنا نتوقف فترات قصيرة لنحيي الناس ونصافحهم ، ونتناول القهوة ولكن السلطان كان على عجلة من أمره ، فيعمد في بعض الأحيان الى التلويح بيده للناس دون ان يتوقف ، فيغضبون ، ولكنهم لا يلبثون ان ينفجروا ضاحكين بسخرية مريرة . ومررنا كذلك بعده من الهجانة ، ولكنهم لم يعيروا موكب السلطان اي اهتمام ، لا هم ولا جمالهم . وحدث ان تعطلت إحدى سياراتنا وكان يستقلها القاضي ، ولما عجزنا عن إصلاحها تركناها ، وانتقل القاضي إلى سيارة اخرى ، ولكننا ما إن قطعنا بضعة اميال حتى رأينا المعجزة تتحقق إذ لحقت بنا السيارة المعطلة بعد ان اصلحها خبراء من شركة البترول ، وقيل لي فيما بعد ان سائق تلك السيارة وركابها الآخرين كانوا محظوظين ، اذ عثرت عليهم سيارة تابعة لشركة البترول فأصلح رجالها لهم السيارة ، وإلا لقضوا نحبهم في الصحراء . وهكذا اكتمل النصاب القانوني لقافلتنا ، وقد عقّب سائقي على ذلك بقوله : « ان الله دائماً رحيم بكل مسافر » وردد هذا القول السلطان نفسه واضاف اليه قوله : « كان من حسن حظهم ان يجدوا العون من شركة النفط ، أليس كذلك ؟ إن مثل هذه الحادثة لم تقع حتى ونحن في قلب الصحراء » .

وكان ميلز قد كتب عن إبري سنة ١٩١٠ يقول : « ان القبائل التي تقطنها ، هي في الغالب من اللصوص والخونة والقتلة » ، ولذلك فقد دهشت كثيراً عندما اقتربنا من هذه البلدة ذات السمعة السيئة ، لأنني

وجدتها اكثر بلدان عمان أمانا وجمالاً . وهناك تلة بيضاء ترتفع فوقها من جهة الشرق ، وسهل خصب يمتد بعيداً الى جهة الجنوب ، وتقع البلدة ذاتها وسط بساتين ريّانة ، مليئة بضروب الفواكه ، حتى لقد شبهتها « ببيضة في وسط عش أخضر » . ويجري عبرها « فلّوجان » كبيران ، ينحدران اليها من التلال ، وعلى الرغم من أن بنايات البلدة مغطاة بالأتربة ، الا ان موقعها كان رائعاً .

وعندما تجولت في البلدة ، بعد ظهر ذلك اليوم ، وجدت أن لها طابعها الخاص ، ولما كان موعد اجتماع السلطان بزعماء البلدة قد تحدد في المساء ، فقد أمضيت ساعات الانتظار في التسكع في الشوارع ، ووجدت بناياتها مشيّدة على الطراز العربي ، ومزدانة بنقوش وأشعار . وكان ثمة قوس ضيق يقود من خارج البلدة الى وسط ابري . وفي الواقع كان ثمة ضرب من السحر يغري المرء بالتجول في ارجاء تلك البلدة ، فجبتها شبه مغمض العينين ، مستمتعاً بالسير على رمالها الناعمة ، وكأنني في حلم ، وشاهدت اسوارها التي تحيط بها ، والجدول الذي يجري بالقرب من تلك الأسوار ، ذات البوابات الخشبية المبعثرة هنا وهناك ، والتي تفضي إلى ضواحي البلدة ، واسترقت النظر من احدى هذه البوابات ، وكانت في حراسة كلب شرس ، قطعت أذناه (ليزيد ذلك من قدرته على السمع) فرأيت بساتين المانجا والليمون والمشمش والتين والموز والرمان والكرز والبرتقال وجوز الهند والبطيخ ، وانواع اخرى من الفواكه ، لا أتذكر اسماءها الآن ، وعلى الرغم من انتشار الغبار هناك ، فان الأشجار كانت يانعة الخضرة ، وأشبه ما تكون بأشجار الغابة .

ومررت ببضع نساء كن يرتدين ملابس سوداء ، وكنت قد وصلت

في تجوالي الى ساحة صغيرة مربعة ، في وسطها بضع درجات تؤدي الى الفلوج ، وهناك رأيت عدداً من النساء تصدر عنهن صرخات غريبة . وشاهدت كذلك عدداً قليلاً من الرجال يمازح بعضهم بعضاً ، بما يحملون من اسلحة ، غير ان الغالبية العظمى من الناس ، هم من النساء اللاتي يتبرقعن بخمر سوداء ، كتلك التي تتقنع بها نساء ظفار . ولست اكتم سراً اذا قلت ان منظر النساء كان مرعباً ، بملابسهن السوداء ووجوههن المغبرة ، واصواتهن المزعجة ، وايديهن القذرة ، حتى بدون كجمع من الطيور الجائعة تنقض على كومة من الحبوب .

وشققت طريقي وسط الجموع الى اعلى الدرج ، ونظرت من علٍ الى المياه التي كانت تترقرق تحتي ، فرأيت اربع نساء محجبات يغسلن طفلاً وليداً . وكانت الدرجات مزدحمة بشكل لا يطاق ، كما ان الروائح المنبعثة من الفلوج لم تكن بالروائح السارة . ولاحظت ان النساء لم يلتفتن الي فوقفت اراقبهن ، وانا مختفٍ وراء الصخور

وأحسست فجأة بيد تلمس كتفي ، وسمعت شخصاً يحدثني بالانكليزية قائلاً : « طابت اوقاتك يا سيدي ! يجب ألا تقف هنا حتى لا تصاب بعدوى مرض خبيث .. ان هذا المكان موبوء بالأمراض » . وعرفت في محدثي ذلك الجندي الذي ترجم لي خطاب السلطان ، والحقيقة أنني دهشت لانه لم يكن يرتدي الزي العسكري ، بل ثوباً ابيض اللون يلفه من رأسه حتى قدمه ، ويحمل على ذراعه منشفة . وفي الواقع قد اثارني ظهوره في تلك اللحظة ، خاصة بعد ان أدركت بأنني اقف في مكان مخصص للسيدات .

وتأبط صاحبي ذراعي وسار بي مبتعدا ، وقال لي فيما نحن نسير انه كان يستحم وسيكون من دواعي سروره ان أقبل دعوته لزيارة البيت الذي يقطنه في ابري . وكان من الخطأ ان امكث كل تلك المدة قرب الفلوج إذ ان نظام المراقبة كان صارماً . وعندما استأنف صاحبي حديثه قال : « انك لا تستطيع ان تفهم هؤلاء الناس الحمقى يا سيدي .. تصور انني لا استطيع ان ابوح لهم بأنني مسيحي ، ولو فعلت لقتلوني ، ورغم ذلك فان علي ان ابوح بالحقيقة يوماً ما .. لقد تزوجت منذ مدة فتاة مسلمة جميلة .. ولعمري ماذا استطيع ان افعل غير ذلك ؟ انك لن تجد فتاة مسيحية واحدة في كل انحاء مسقط وعمان » .

وتملكني العجب لايمانه العميق ، وفي الواقع ان ثمة شيء ما في شخصيته يبعث السرور في نفسي . ومضينا الى بيته ، وكان له بوابة ثقيلة (وكان الجندي قد اخبرني بأن ابري تعج بالصوص) وتحيط به حديقة غناء . ولما دخلنا من الباب ، رأيت في شبه الظلام المسيطر على المكان ، اربعة او خمسة اشباح ، ولكنها كانت لا تتحرك ولا تتكلم ، وإن كانت تصدر عنها انّات ضعيفة ، ورأيت ناراً خفيفة مشتعلة في الموقد ، ولم اشأ ان اسأل عما يجري هناك ، ظناً مني بأن بعض اقارب الجندي يمارسون الطقوس المسيحية سراً ، ولكننا ما ان ارتقينا السلم ، حتى اشار الى احد تلك الأشباح وقال : « هذه هي زوجتي ، انها تعاني من مرض داخلي ، فجاءت بعض صديقاتها للعناية بأمرها » . والحقيقة كان من الصعب علي ان اتصور علاجاً على هذا الشكل ، وخاصة في ذلك المكان ذي الجو الخانق ، الذي كان الزوج يبدو سعيداً جداً به . وجلسنا في غرفة علويه ورحنا نراقب المارة من النافذة ، بينما نأكل رمانا

حامض المذاق . وحدثني صاحبي قائلاً ان ابري بلدة سخيفة يقطنها اناس سخفاء ، سلوكهم شاذ ابداً ، فالمرء لا يعرف ما الذي يريدون عمله بعد ان يقابلهم ، وهم على جانب كبير من الجهل ، وعلى جانب مماثل من القذارة ، ونظام المراقبة الصحية لا وجود له » . واختتم الجندي حديثه بقوله : « ان الحياة هنا لا تطاق » . ثم نفث سحابة من دخان غليونه .

وعدت لأتجول في المدينة ، فوجدتها في حالة من الهرج والمرج لا توصف ، فهناك مئات من الشيوخ ، وحولهم مئات من اتباعهم ، وقد اجتمعوا في الساحة الرئيسية للبلدة ، وتقع الى جانب جدران مهدمة ، يسمونها « القلعة » وكانت فيما مضى قلعة بالفعل ، ولكن زلزالاً دمرها في القرن التاسع عشر ، ولم تصلح منذ ذلك الوقت — ولاحظت ان هؤلاء الناس في حالة من الانشراح ، وقيل لي انه على الرغم من التقاليد الصارمة والقيود التي فرضها الامام ، فان كمية لا بأس بها من خمر التمر تصنع في البلدة ، وكان واضحاً ان بعض اولئك الشباب قد وجدوا مكاناً ما يحتسون فيه كأساً او من يدري عدة الكؤوس التي شربها كل واحد منهم . وفضلاً عن ذلك فانهم على الرغم من القيود المفروضة على التدخين ، كانوا يدخنون جميعاً ، وكل واحد يستعمل غليوناً خاصاً ، يضع فيه نوعاً من الدخان له رائحة كريهة .

ولم اجد في ابري غير روح العداء ، وعندما ذهبت الى السوق وجدته مكتظاً بالسلع : « شفرات حلاقة ، صابون انكليزي ، منسوجات هندية الخ .. » ، ووجدت اصحاب المتاجر يحبون المساومة حول الاسعار ، كما لاحظت ان ابواب المتاجر تغلق باقفال كبيرة الحجم ، ولكن ثبت لي

فيا بعد أن جميع المواطنين هناك مستقيمون وصريحون .

وتوقفت فترة عشر دقائق أمام متجر صائغ ، اراقب الجوهري وهو يعمل في متجره المظلم ، وبدا لي أن الرجل فارسي إذ أنه يعتمر « كلبكاً » ، وهو لباس رأس شائع في إيران ، ولا أكتم أن منظره ذكرني ببعض العمال الذين تعرفت اليهم في « اصفهان » و « طهران » . ولمحت في عينيه نظرة تدل على مهارته في مهنته ، كما تدل على تواضعه وقناعته ، ومما لا شك فيه أنه كان يتقن الفن الايراني القديم ، كما يتقن مسايرة البشر . وظل الرجل يعمل دون ان يلتفت إلي ، ولما غادرت متجره ، رمقني بنظرة ساخرة ، وعكف يعالج قطعة من المعدن .

ووقفت في مكان آخر لأتحدث الى عددٍ من الشباب كانوا مجتمعين على قارعة الطريق ، واقترحوا علي ان اقابل شيخهم الذي كان وقتذاك يعد نفسه لمقابلة السلطان ، فقبلت وتوجهنا الى بيت طيني ذي باب خشبي جميل ، وهناك وجدنا رجلاً متقدماً بالسن ، حسن المظهر ، يجلس على الأرض ، ولو قارنا بين ملابسه وملابس السلطان ، لوجدنا ان ملابسه أفضل وأثمن . ولم يستغرب الشيخ رؤيته لي ، فأشار إلي بالجلوس إلى جانبه فوراً ، ثم طلب القهوة وقال دون اكتراث : « يوم سعيد أليس كذلك ؟ إن السلطان موجود في ابري ، ولم أكن لأحلم بأن يمتد بي العمر حتى أراه هنا .. لقد ذهب الامام وجاء السلطان إذن » .

وخيّل إلي انني سمعت ضحكة خفيفة من أحد الشباب ، ولكنني لما التفت اليهم انا والشيخ معاً ، كانت وجوههم جامدة كوجه أبي الهول .

ولاحظت مظهراً آخر إن دل على شيء ، فإنما يدل على طيش أهالي

ابري حتى في معالجتهم المشاكل المهمة . فقد كان الأعراب مدججين بالأسلحة ويتجمعون في الساحة بانتظار مرور موكب السلطان ، ويخيم عليهم جو أشبه ما يكون بجو الأعياد ، وكان أحدهم يعمد بين الفينة والأخرى ، الى افراغ رصاص بندقيته في الهواء ، الأمر الذي أثار تساؤلاً — إن لم يكن عند احد فعندي على الأقل — حول ما إذا كانت هذه الرصاصات التي تطلق في الهواء ، لن تطلق في يوم ما على هدف معين ؟ واعترف مرافقي بأن بعض الناس يصابون في مثل هذه المناسبات ، ومع وجود الخطر في اطلاق النار في الهواء ، فان أحداً من الموجودين ، لا يتخذ أقل حيطة ممكنة ، بل ولا يتحرك ، رغم أن الرصاص قد يمر على بعد إنشات قليلة من اذنه ، بل يظلون حيث هم ، هادئين ، يحتسون القهوة ، ويدخنون . وأشار مرافقي الى جماعة كان أفرادها يضحكون وقال : « إنهم شيوخ قبيلة دورو » وهذه القبيلة ، هي وحدها التي يعرف أفرادها الطريق عبر الصحراء ، التي مررنا بها ونحن في طريقنا الى فرهود ، وهم كذلك الوحيدون الذين يديرون منجماً للملح ، منح لهم من قبل والد السلطان . وأفراد هذه القبيلة ، رجال اشداء معتدون بانفسهم ولهم نفوذهم بين القبائل الأخرى . وتملك قبيلة دورو قطعاناً كبيرة من الابل الممتازة ، وهي على عداء مستحكم مع قبيلة يال وهيبة وبينهما ثارات قديمة .

وانضممت إلى جماعة من أبناء القبائل ، كانوا يجلسون في دائرة على الأرض ، وسألني أحدهم قائلاً : « كم تعتقد عمر بندقيتي ؟ » وفي الواقع كان السؤال مربكاً ، إذ ان البندقية كما بدت لي كانت من طراز « كروموبل » كسرت ماسورتها منذ أمد بعيد ، وربطت بأسلاك

علاها الصدأ .

فقلت له : « دعني اراها ! » . وفحصتها عن قرب ، وأنا في حيرة من أمري حول ما يجب ان أرد به على السؤال ، واخيراً قلت بتردد : « حسناً .. أعتقد أنه بامكاني القول بأن عمرها عشرون سنة أو خمس وعشرون ! »

وفوجئت بضحك مدوٍ كجواب على ردي المتحفظ ، وتطلع صاحب البندقية الى الموجودين معجباً بنفسه ، وكأنه أخرج ارنباً من تحت عمامته ، وراح الشباب يصفقون بينما استغرق الشيوخ في الضحك الى درجة أن بعضهم اصيب بنوبة سعال شديدة .

وأخيراً قال صاحب البندقية : « ان هذه البندقية تخص والد والد والدي ! عمرها ثمانية وثمانون عاماً ، وهي أقدم بندقية في ابري » . وصمت الرجل قليلاً ثم استطرد يقول : « كم تدفع مهراً لزوجة في بريطانيا ؟ » .

وقبل أن تتاح لي الفرصة للاجابة ، قفز الرجل واقفاً ممسكاً بذراعي ، وقادني بعيدا عن الساحة ، وبعد مسيرة قصيرة ، وقف يقرع باب بيت بادي القذارة والقدم ، وفتح الباب على الفور ووقفت وراءه فتاة زنجية تتدلى من أذنيها أقراط طويلة ، ترتدي ثوباً أسود يصل الى قدميها ، وتضع على رأسها شيئاً شبيهاً بالعمامة . وكانت سافرة الوجه ، زينته بأصباغ غريبة حتى بدا مخيفاً ، فهمت بالهرب ، ولكن العربي امسك بي وأخذ يردد بضع كلمات ، ثم وقف أمامي وقال : « هأنذا .. التقط لنا صورة ! » .

غير أن الوقت لم يكن مناسباً ، لاننا سمعنا في تلك الأثناء صوت انفجار ، كتلك الانفجارات التي اعتدنا سماعها معلنة وصول السلطان ، فأسرعت والاعرابي يركض ورائي ، الى الساحة ، وحانت مني التفاتة إلى الوراء ، فوجدت الزنجية ما تزال تقف بالباب تلوّح لنا بيدها مودعة . ولما وصلنا الى الساحة لم نجد السلطان ، بل وجدنا حلقة الشيوخ قد اتسعت واتخذت شكل المستطيل ، والجميع يجلسون في هدوء ، وكأنهم لم يسمعوا الانفجار ، او كأن السلطان ليس على وشك الوصول . وعلمت أخيراً ان رجال المدفعية في القلعة ، أحبوا قطع الوقت باطلاق المدافع ، رغبة منهم في الاثبات للأهالي ان قائدهم البريطاني رجل جد ، لا يرضى بأن تظل مدافعه صامتة . والمضحك في الأمر هو ان الذين كانوا يطلقون المدافع ، هم وحدهم الذين كانوا يخافونها ، فبعد ان يعدوها ويشعلوا الفتيل ، يهربون الى داخل القلعة ، ولعلهم يفعلون عين الحكمة ، إذ كثيراً ما تنفجر المدافع وتودي بحياة كل قريب منها ! .

وهب الجميع وقوفاً ، عندما مر السلطان بسيارته ، ولكن لم يبد على احد منهم أي اهتمام ، إذا ما استثنينا الرغبة في رؤية هذا السلطان ، الذي ترجل أمام سرادق نصب خصيصاً له ، وغطيت جوانبه بالسجاد ، وللسرادق مدخل واحد ، وليس له نوافذ ، ولذا كان معتماً إلا من شعاع بسيط من الشمس يتسلل الى المدخل .

واسترقت النظر عبر الباب ، فرأيت السلطان جالساً في عظمة مفتعلة في أقصى زاوية في السرادق واكثرها ظلاماً ، والى جانبه اثنان او ثلاثة من رجاله جلسوا وأرجلهم تحتهم ، بينما جلس الباقون في صفين طويلين على جانبي السرادق ، ومعهم بنادقهم وعصيهم .

وبينما أنا واقف في مكاني ، جاءني أحد الخدم ليبلغني ان السلطان قد لاحظني أقف في الخارج فأرسل يدعوني للانضمام الى الجماعة . واضطربت للدعوة ، اذ ان من عادة العرب في مثل هذه المناسبة أن يخلعوا نعالهم ، وكنت أعرف ان جاربي ممزقان بشكل بشع .. ولكن .. هل بمقدوري ان ارفض الدعوة ؟ فخلعت حذائي ، وسرت فوق السجادة التي تغطي ارض السرادق ، محاولاً اخفاء أصابع قدمي التي كانت تطل من جاربيّ ، وكنت أخشى أن تثير محاولتي هذه استغراب القوم ، ولكن أحداً منهم لم يبد أي اهتمام ، وظلوا جالسين كالتماثيل ، لا يتحركون الا ليمشطوا لحاهم او اصلاح ثيابهم ، وفي بعض الأحيان ينقلون اسلحتهم من يد الى أخرى ، دون ان يبتسموا او يهمسوا او حتى يسعلوا ، يرسمون على وجوههم امارات الجد ، وكأنهم أعضاء في مجلس قيادة « مونتغمري » .

وتوقعت ان ارى القوم خلال فترة قصيرة يلقون بأنفسهم على قدمي السلطان ، ولكنهم على ما يبدو كانوا يعرفون في حضرة من يجلسون .. أليس هو الذي احتل بلادهم بمساعدة الانكليز الأجانب ، ثم جاء ليفرض نفوذه عليهم ؟ ولذا لاذوا بالصمت ، الأمر الذي أثار السلطان فنهض وألقى على الموجودين نظرة كنظرة النسر ، فنهض الجميع وراءه ، وتبعوه الى الخارج ، حيث الشمس المشرقة ، فأحسست وكأنني انتقلت من عالم الى عالم آخر ، من دنيا موحشة تسيطر عليها التقاليد ، الى دنيا حرة لا قيود فيها . ولمح السلطان زمرة من الشباب يدخنون ، ولا شك في انه احس بالاهانة ، فأصدر امراً فيما بعد جاء فيه : « انه لما كانت عادة التدخين متأصلة الجذور في ابري ، فانه يسمح للسكان بالتدخين في خلواتهم ، ولكن ليس في الأماكن العامة »

واذا كانت نزوة يمكن تشبيهها بانها « مكة » رحلتنا ، وابري بمثابة « رينو » او « مونت كارلو » فان البريمي يمكن تشبيهها بأنها « بالطة » اذ كان على السلطان ان يجتمع هناك بشيخ ابي ظبي للاتفاق معه على تقسيم مناطق نفوذهما . واستطعت ان ارى على الخارطة رغم مقياسها الصغير السبب الذي جعل من هذه الواحة النائية مفتاح الطريق الى جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية منذ القدم . فهي تقع في طرف الصحراء ، وفي نقطة قريبة من قاعدة عمان . وكانت خارطتي تشير الى وجود خمس طرق للقوافل ، كلها تمر بالبريمي ، لأنها مصدر المياه الوحيد في تلك المنطقة ، وهي تشرف على اسهل الطرق المؤدية الى البحر ، عبر التلال ، وتشرف كذلك على الطريق المؤدية الى نزوة وقلب عمان والطريق من شبه الجزيرة الى المشيخات ، ونظراً لهذا المركز الستراتيجي ، كانت منذ القدم مركزاً لتجارة العبيد ، يجد فيها تجار شبه الجزيرة عبيداً زنوجاً من زنجبار او أفريقية ، وبالاضافة الى ذلك كله ، فانها بوابة المملكة العربية السعودية ، وعن طريقها تقدم المساعدات الى عمان ومشيخات الخليج .

والبريمي عبارة عن مجموعة قرى ، يبلغ عددها تسعاً ، تطالب بها كلها المملكة السعودية استناداً الى اسس تاريخية ، اما بريطانيا فانها ترى ان ستاً من هذه القرى ملك لمشيخة ابي ظبي وثلاثاً لسلطنة مسقط ، واختلف الجانبان — وما زالا — حول وجهة النظر هذه .

وعندما سئل كبار محامي شركة البترول الاميركية التحقيق في الأمر ، افتوا بأن البريمي ارض سعودية ، واكد حق السعودية فيها احد كبار المستشرقين البريطانيين ممن لهم شهرة عالمية ، ومع ذلك لم تقتنع بريطانيا ، فأحيلت القضية الى محكمة العدل الدولية في جنيف . وتذرعت بريطانيا

بحجج واهية لاجلاء القوات السعودية من البريمي ، وأثار عمل بريطانيا هذا ضجة في العالم العربي ، وخاصة في القاهرة والرياض ، وها هو سلطان مسقط وشيخ ابي ظبي يجتمعان الآن في البريمي كما اجتمع ستالين بالزعماء الغربيين في يالطة .

واغرب ما في البريمي طبيعتها القاتمة . وكنا قد مررنا بأراض خصبة قبل ان نصل اليها تحرسها جبال شاهقة من الجهة الشرقية ، ومررنا بعدد من بساتين النخيل وعدد من القلاع ، ورأينا عدداً قليلاً من الاعراب يقفون خارج اكواخهم حول مدفع قديم ، وهنا قال لي سائقي اننا وصلنا الى البريمي . واشهر قرى الواحة هي تلك التي تبدو عند الافق ، وعندما وصلنا اليها وجدنا عدداً من الجنود ، أوكل اليهم مهمة قيادتنا اثناء تجوالنا . وبين طرف الواحة وطرفها الآخر مسافة بضعة اميال ، وتنتشر البيوت وبساتين النخيل بلا نظام بين الطرفين ، ولا شك اننا لو كنا عبرنا الصحراء على ظهور الجمال ، لبدت لنا الواحة اجمل من الجنة .

وتجولت في انحاء الواحة فترة من الزمن ، ولم اجد اثراً لتجارة العبيد هناك ، ولما تعبت جلست في احد المقاهي ، بين جماعة من ابناء القبائل ، وتقدم مني احدهم وامسك برسغي فجأة ، يريد ان يرى ساعتي وسألني : « أهي لونجين ؟ » ولم استغرب سؤال هذا الشخص الذي بدا لي انه قضى حياته كلها على ظهر جمل ؟ لأنني كنت اعلم ان الحكام السعوديين يقدمون الهدايا ، وخاصة الساعات ، لكل من يؤدي لهم خدمة ، وتكون الساعة ثمن كلما كانت الخدمة اكبر ، وغالباً ما تكون الساعة من ذهب ، وبدا على الشاب شيء من الحيرة اذ ان ساعتي كانت من طراز يختلف عن ذلك الذي يوزعه الحكام ، ولذلك قدروا ، اما ان اكون شخصاً مهماً

جداً واما ان اكون شخصاً تافهاً على الاطلاق . ولم يبد افراد الجماعة كبير اهتمام بساعتي ، وراحوا يخرجون ساعاتهم ويعرضونها علي ، واخيراً اخبروني ان ساعتي مؤخرة سبع ساعات ! »

واجتماع البريمي يختلف كثيراً عن تلك الاجتماعات التي عقدت من قبل للترحيب بنا ! فقد كانت آمالنا مركزة في البريمي على مواضيع أكثر اهمية كالحرب الباردة ، والناحية الاقتصادية ، ومستقبل الامبراطورية ، ومصالح شركات النفط ، ولذلك كانت الحكومة البريطانية ممثلة هناك بشخص مسؤول سياسي ماجن ، والمعتمد السياسي في ابي ظبي ، وكذلك كانت وزارة الحربية ممثله في الاجتماع ، لأنها لعبت دوراً مهماً في القضية ، فقد احتلت القوات البريطانية واحة البريمي — ولا شأن للسلطان في احتلالها — وكان شقيق شيخ ابي ظبي وممثله في الواحة ، موجوداً ايضاً ، وهو شاب ذكي له شخصية قوية .

ومن هنا يمكن القول بأن جو الاجتماع كان خانقاً ، خلافاً للاجتماعات السابقة التي حضرها السلطان . ونصبنا خيامنا في أراضي ابي ظبي ، اما بطريق الخطأ واما اظهاراً للتضامن ، وبتنا ليلتنا تلك ، بانتظار الشيخ شخبوط بن سليمان حاكم مشيخة ابي ظبي .

وكنت قد سمعت الشيء الكثير عن شخبوط هذا أثناء رحلاتي العديدة في بلدان الشرق الأوسط ، وأعرف ان مشيخته ، على عكس المشيخات الاخرى في تلك المنطقة ، لم تعرف البترول بعد ، وأنه رجل قنوع . واذكر ان أحد أصدقائي رافقه ذات مرة في رحلة داخل مشيخته ، ووصف تلك الرحلة بأنها كانت ممتعة . ولما سألته عما دار بينه وبين الشيخ

من حديث اثناء اجتماعها خلال الرحلة ، اجابني بأن الحديث دار حول مواضيع مختلفة ، ولكنه يذكر منها موضوعين بشكل خاص ، أثارهما الشيخ ، الأول سؤال حول ما اذا كان صديقي يعتقد بأن الانسان سيتوصل الى اختراع آلة توصله الى القمر ، والثاني سؤال آخر عما اذا كان يعرف نسبة عدد البروتستانت والكاثوليك في هامبورغ ! والسؤالان ان دلا على شيء فإنما يدلان على ذكاء الشيخ شخبوط غير العادي ، وسعة اطلاعه !

• من المؤكد ان الشيخ شخبوط ميال الى المدنية اكثر من ميل السلطان اليها ، اذ انه وصل في صباح اليوم التالي قادماً من عاصمته ، في سيارة كاديلاك فخمة ذات لون احمر ، ولما لمحنا وجهه من النافذة ، رأيناه وجهاً بشوشاً ، يتربع فوق عينيه حاجبان كثيفان ويتوسط وجهه فم معبر ، ولما ترجل من السيارة ترجل بعظمة على الطريقة التي تصور احياناً في الكاريكاتور . وأحسست على الفور بأنه رجل يحسن الاعتناء بنفسه كثيراً ، ولعل مرد ذلك الى انه ورث غريزة المحافظة على حياته ، فتاريخ اسرته يتميز بالعنف ، حتى بالنسبة لشبه الجزيرة العربية ، فقد سبقه الى الحكم اربعة عشر شيخاً ، اغتيل ثمانية منهم (اربعة على ايدي اشقائهم) واربعة خلعوا او نفوا — احدهم من قبل شقيقه واثنان من قبل ابنه — ولم يمت بسلام في ابي ظبي غير اثنين . وهناك قسم من آل شخبوط تخلوا عن الشيخ وانضموا الى جانب السعوديين ، وفكروا ذات مرة باعداد غزوة لبلاده ، فلا عجب والحالة هذه ان رافقه عدد كبير من جنوده وإن دقق كثيراً في البحث عن الحقيقة اثناء المحادثات .

وترجل من السيارة بعده رجل انكليزي طويل القامة يحمل « كاميرا » وقدم نفسه الي على أنه شاعر بلاط الشيخ ! والحقيقة ان هذا الرجل ، كان يؤلف كتاباً عن الخليج العربي ، ويجل ضيفاً على شخبوط كما أجل أنا ضيفاً على السلطان ، ويبدو أنه يستمتع بوقته الى أقصى الحدود . ولاحظت كذلك أن الشيخ ينظر الى وجوده نظرة تفاخر ، ولعله تذكر أيام العرب الخوالي ، عندما كان الحكام يصطحبون معهم شعراءهم ليثيروا حماستهم في المعارك وليسجلوا لحظات انتصاراتهم .

ثم ترجل آخران ، يحمل كل منهما صقراً على رسغه ، وكأني بالشيخ شخبوط كان يعتبر الاجتماع بمثابة رحلة صيد في الصحراء . وحدثني بعضهم عن الصقرين قائلاً انهما يعادلان جنديين ، وثمنهما مرتفع جداً ، والصقران يشبهان « طيور الله » التي وجدت رسومها منقوشة في الآثار الفرعونية القديمة ، ثم ان الصقور هي الهواية الوحيدة لشيوخ منطقة الخليج العربي في فصل الشتاء .

وطريقة اصطياد هذا الطائر القوي ، طريقة غريبة ، اذ يعمد الصياد الى حمامة فيربط في رجلها حجراً ثقيلاً ، حتى إذا ما رأى الصقر يقترب ، تركها تجاهد للخلاص من إسارها ، فيراها الصقر ، فينقض ويجهز عليها ، ثم يحاول أن يحملها ويطير بها ، غير ان ثقل الحجر يمنعه ، فيبتعد ليعود مرة ثانية على أمل التهامها حيث هي .

ويكون الصياد قد أعد حفرة قريبة جداً من مكان الحمامة وغطاها بالحشائش ، وعندما يعود الصقر لالتهام فريسته ، يظل يدور حول الحمامة ، حتى ينزلق في الحفرة ، وهنا يهجم عليه الصياد ويمسكه متجنباً

منقاره ومخالبه . وعلى الرغم من القسوة في طريقة اصطياد الصقور ، إلا أنه سرعان ما تتوثق الصداقة بين الصقر وسيده ، فور أن تذهب عن الصقر صدمة اللقاء الأول .

واجتمع السلطان والشيخ .. وتدارسا سياستيهما ، وهنأ أحدهما الآخر على ما أحرزه من نجاح !. واتفقا على أشياء ، وتلا ذلك حفلة تذكارية فخمة ، دعينا لحضورها في صباح اليوم التالي . وتوجهنا سيراً على الأقدام ، فوق رمال البريمي الناعمة ، الى حيث نصبت خيمة خاصة للحفلة ، وعلى الرغم من كبر حجم الخيمة ، الا ان الوليمة كانت اكبر منها بكثير ، فقد كان الطعام مكدساً في ارجائها وخارجها ، ولا استطيع ان اتذكر انواع الطعام كلها ، ولكنني اذكر من بين الأطباق الكثيرة ، لحم الجمال المطهو بالبهارات ، وانواع اللحوم الأخرى ، وطعاماً شديد الحلاوة ، وجبالاً من الأرز ، وأشياء اخرى كثيرة . وجلس الضيوف على الأرض حول هذه « البوفيه » الرائعة ، بينما جلس السلطان والشيخ على رأسها ، وبارك القاضي طعامنا قبل ان نبدأ باكله ، بصوته الدفيق المرتجف .. ثم . بدأ الاحتفال .

ولن أقول انها كانت وجبة ممتازة ، إذ ان الأعراب كانوا يأكلون بطريقة مثيرة ، وكل واحد يريد ان يفعل ما يحلو له ، ولعل من الانصاف القول ان قلة منا — الانكليز — وجدوا ما يأكلونه . ففي مثل هذه المناسبة يتحتم عليك أن تأكل بيدك اليمنى ، الأمر الذي يعيق قدرتك على الحركة ، وخاصة في مجال مزدحم ، كالذي كنا فيه ، ثم ان كل واحد كان يراقب الحاكمين ليفعل مثلهما ، ولم يكن الحاكمان اكثر مدنية من غيرهما ، وهكذا جلسنا والصمت يخيم فوقنا .

وكنت أرى أحدهم يعمد الى قبضة من الأرز ويعصرها بين أصابعه ليزيل ما بها من سمن ، وبحركة بارعة يقذف باللقمة الى فمه . ويعمد في أحيان أخرى الى قطعة من لحم الجمال يقع عليها اختياره ، ولكنه لا يستطيع قطعها ، فيعمل يديه فيها شداً وجذباً ، ويجاهد حتى يحصل على قطعة صغيرة . أما طبق الشرف في هذه المأدبة ، فقد وضع في منتصفها ، فكان من المستحيل على أحد ان تصل يده اليه ، ولذلك بقي على حاله دون أن يمس .

وسأل شاعر بلاط الشيخ ، عما اذا كان السلطان والشيخ يسمحان له بالتقاط صورة تذكارية لهما ، فوافق السلطان ، شريطة ألا يلتقط الصورة اثناء اكله أرزاً ، لأن الأرز قد يتناثر على لحيته . وقام المعتمد السياسي البريطاني في ابي ظبي بالتقاط صورة لهما ، مستخدماً كاميرا صغيرة جداً ، ولما قلت للسلطان إنها كاميرا ألمانية صنعت خصيصاً للجواسيس قال : « لقد فهمت ! »

وهكذا أمضينا ساعة او حوالي ساعة أمام الطعام المنشور على الأرض ، دون أن نأكل منه الشيء الكثير ، ولما تبادل الحاكمان الابتسامات والشكر ، نهضا فتبعهما الجميع الى الخارج . ورأيت عدداً كبيراً من الخدم ، ورجال الهجانة ، والقرويين ، تجمعوا وراء الخيمة ، كالموجة التي تنتظر دورها في الانكسار ، وما إن سرنا ببطء نحو المعسكر وأصبح السلطان والشيخ بعيدين عن الأنظار ، حتى هبط ذلك الجيش العرمرم من فوق تلال الرمال ، وهجم على الخيمة وما فيها من طعام ولم يغادرها أفراده ، حتى أتوا على كل شيء يؤكل فيها .

- ٧ -

« عبر الجبال - وادي جزيز - فحم - سوحار - البحر - على ظهر السندباد - متطوعون ! - نداءات بحرية - مغادرة تلال الرمل - الوطاويط » .

كان رحيلنا عن البريمي ، دراماتيكياً ، إذ أنه ما إن تجمعت قافلتنا الكبيرة ، وأديرت محركات السيارات ، وانطلقت نحو التلال ، حتى استقل شيخ ابي ظبي سيارته الكاديلاك ، ورافقنا لفترة من الزمن ، حتى غادرنا حدود بلاده (وأغلب الظن انه فعل ذلك ليتأكد من أننا قد غادرنا فعلاً بلاده) ، وكنت أرى وجهه الطويل من نافذة سيارته ، يعلو ويهبط حسب طبيعة الأرض ، ويبدو ان اجتماع « بالطة » كان ناجحاً ، ولو من حيث اتفاق المسؤولين ، اللذين يحكمان جزءاً من العالم تغمره الاحقاد ويسوده الحسد ، على اقتسام الواحة . ويرجع الفضل في هذا إلى البريطانيين !.. الذين عملوا كثيراً في سبيل ايجاد استقرار لمشيخات الخليج العربي ، والذين كانوا ، كما يبدو ، على علاقات طيبة بهذين الحاكمين ،

ومع ذلك لم استطع الا ان أتساءل وأنا اراقبهما يسيران في خط متوازٍ عن مدى ما سيكون عليه ودهما ، إذا ما أصبح إقليم الحدود هذا مركزاً كبيراً لحقول البترول . ومن مصلحتهما بطبيعة الحال إبعاد السعوديين عن البريمي واعتقد بأن كليهما كان يتوهم بأن ذلك من حقهما ، ولكن ماذا سيكون مصير هذا الحق إذا ما اكتشف البترول هناك ؟ لا شك في أن القرى التسع التي تتألف منها الواحة ، ستغدو ذات اهمية كبرى خلال فترة عشرين سنة .

ولما توقف الشيخ شخبوط وأدار سيارته ليعود الى الواحة ، لوح لي شاعر البلاط ، وكان يجلس في المؤخرة ، مودعاً ، كما تمنى الشيخ للسلطان رحلة موفقة . وكان برنامجنا أن نصل الى سوحار على خليج عمان في مساء ذلك اليوم ، متغاضين عن الاحتفالات التي ستقيمها القرى الواقعة في طريقنا ، وبناء على ذلك ، سرنا بسرعة مغادرين السهل ، وما هي إلا دقائق حتى كنا قد تركنا بساتين النخيل في البريمي وراءنا ، وسلكنا الممر الوحيد المؤدي الى الجبال ، ويدعى « وادي جزيز » — هذا ويوجد ممر آخر فوق نزوة يمتد الى مسقط ، ويبلغ طوله حوالي تسعين ميلاً ، اما الممر الذي سلكناه فيبلغ طوله خمسمائة ميل . والممر الأول صالح لسير السيارات ، لو نظفت قمته من بعض الصخور الكبيرة . وعلمت أن شركة البترول تعتزم ان تنشىء طريقاً عبر هذا الممر لتربط فرهود بخليج عمان مباشرة ، محققة بذلك ثورة في دنيا المواصلات في تلك المنطقة . وكان السلطان يأمل في ان يعود الى ظفار براً سالكاً هذه الطريق .

ورحنا نتسلق التلال ببطء ، فالجزء الأخير من رحلتنا قد بدأ ، وسنصل الى مسقط بعد ثلاثة أيام ، ولاحظت ان الوادي الذي نمر به ،

لا يشبه أي وادٍ آخر سبق أن عبرته ، فهو ضيق ، كثير التعاريج ، ويقع بين تلال عالية ، تشبه منطقة البتراء في الاردن ، غير أن هذا الوادي كان يحتضن كثيراً من الينابيع ، يبعد الواحد منها عن الآخر مسافة معقولة ، واصبحت رحلتنا تتراوح بين اماكن مخضرة واخرى قاحلة . ورأيت واحات صغيرة عند الينابيع ، تنحدر مياهها الى فلوج وهذا يلتقي بفلوج آخر ويشكل الجميع فلوجاً كبيراً . والمرء في تلك الناحية لا يرى البيوت إطلاقاً ، لأن الاشجار الخضراء الكثيفة تحجبها عن العيان ، ولكنه يستطيع ان يرى القلعة الواقعة في أعلى الجبل . وأغصان الاشجار التي تحف بالطريق متشابكة تخلق ظلاً ظليلاً يخفف عنا عناء السفر ، ومشكلة الغبار . وفي بعض تلك الاماكن الظليلة ، توجد برك ماء ضحلة ، رأيت في أحدها طفلاً يسبح وجماعة من النسوة يراقبن موكبنا . وتنمو انواع الفواكه والخضراوات في هذه القرى الجميلة ، وكان بادياً أن سكانها ماهرون بشكل غير عادي في فلاحة أراضيهم ، حتى ليصاب المرء بالذهول إذا ما تذكّر ان عمل هؤلاء الناس كان منذ اجيال إبادة بعضهم بعضاً ، وبالاضافة الى ذلك فقد كانوا يبدون اكثر صحة وسعادة من بقية افراد الشعب العماني الذين قابلناهم . وإنني لأتذكر صبياً سميناً رأيته يرقص ، بينما كان موكبنا يمر من أمام قريته ، حتى لقد خيل إلي انه شخصية من شخصيات « ديكنز » وليس صبياً من شبه الجزيرة العربية ، ووراء هذا الصبي كان شيخان مستغرقان في الضحك على حركات الصبي .

ومررنا ذات مرة ، بينما كنا نعبر احد الشعاب ، بقسم من الصخور ، بدا لي ولم أكن مخطئاً ، إنه يحتوي على فحم ، ومعروف ان الفحم

موجود في تلك المرتفعات ، ولكنه لم يستغل ابداً ، وتوقفت القافلة ، ورأيت عبداً يقفز من سيارة السلطان واقتطع قسماً من تلك الصخور ، وعاد به الى السلطان الذي أبدى اهتمامه به . وقد جرت عملية مسح عامة فيما بعد — حسب اعتقادي — ولكن كل المعلومات التي كانت متوفرة في ذلك الوقت عن تلك الجبال ، كانت قد جمعت من مستكشفين كانوا يعملون في ظروف صعبة وخطرة ، ومنذ عدة سنوات . ومن المؤكد ان الفحم موجود كما انه من المؤكد وجود الحديد — كان عمال الحديد في نزوة يستخدمون حديدا خاماً محلياً وما زالت الادلة على ذلك موجودة حتى يومنا هذا — اما بالنسبة للبترول فقد كنا نأمل في ان نعثر عليه .

ولقد دهشت اكثر من مرة لوجود تشابه بين هذه المنطقة ومنطقة كولورادو في الطرف الآخر من العالم حتى تساءلت ما اذا كانت السلطنة لا تحتوي على مخزون كبير من اليورانيوم ، ومهما يكن من امر ، فان قطعة الفحم ألقيت في مؤخرة السيارة ، واكتفى السلطان بتدوين ملاحظة دقيقة عنها ، ثم واصلنا السير . والحقيقة انّ بعدَ وتفرق قرى عمان لم يؤثرا فيّ ، بالقدر الذي أثره فيّ جهل الناس هناك بما يمكن أن تحويه اراضيهم من خيرات . ودلتني الاخاديد التي حفرتها عجلات سيارات الجنود وهم في طريقهم الى البريمي على ان هذا الجزء المعزول قد فتح على العالم ، ولكنه ظل حتى تلك اللحظة ضائعاً ، ومما يجدر الاشارة اليه أن جميع الامبراطوريات الكبرى في العالم اعترفت بأهمية الخليج العربي ، فأرسل الاسكندر أسطوله اليه ، وتصارعت بريطانيا وفرنسا وهولندا عليه ، وألح بطرس الاكبر على خلفائه باحتلاله ، وحاولت الامبراطورية الالمانية ان تصل اليه ، ورأت فيه روسيا بعد الثورة الشيوعية منطقة

انطلاق رئيسية لنشر نفوذها ، ومع ذلك ظلت عمان التي تسيطر على الخليج العربي غير معروفة ، الا بمقدار ما يعرف عن التيبت او غرينلاند .

وأخذت طريقنا ترتفع ارتفاعاً حاداً ، وتمر عبر منطقة مأهولة بالسكان ، فيها قرى كثيرة ذات اسماء مقبولة ، ولم نكن قد اتبعنا اقصر الطرق في صعودنا الى سفح ذلك الوادي ، نظراً لوجود تجمعات من قبل بعض افراد القبائل في الطريق العام ، احب السلطان ان يستغلها . وعلى كل ، فقد وجدنا انفسنا عند الظهيرة في الطرف الاعلى من التلال على ارتفاع الفي قدم ، وهنا انتقلنا من حراسة احد جيوش السلطان الخاصة ، إلى حراسة جيش آخر ، تماماً كما يحدث في اميركا عندما تجد نفسك فجأة امام بوليس ولاية يرتدي زياً لم تألفه ، ويطبق قوانين لم تكن تخطر لك ببال .

ووجدنا عند قمة الممر ، نقطة حراسة صغيرة فيها فصيلة من الجنود ، اكثر هنداماً من قوة الميدان التي تركناها وراءنا ، وعلمت فيما بعد ان هؤلاء الجنود من قوات بطينة التي انقلبت على طالب شقيق الامام . وعندما قام السلطان بتفقدهم ، لاحظت انهم مدربون تماماً ، لدرجة اثارت في نفسي الاعجاب بهم ، وباتقانهم الفن العسكري .

وما هي الا فترة قصيرة ، حتى رأينا البحر الازرق اللون ، فانتابتنا نشوة فرح ، وتنفسنا الصعداء بعد طول عناء . وكنا قد قطعنا — كما تشير الخارطة — الفاً وخمسمائة ميل ، من بحر العرب الى خليج عمان ، عبر جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية ، فأثبتنا بذلك ان سيارة متينة

وسائقاً ماهراً ، يمكنهما ان يقطعا شبه الجزيرة العربية من اولها إلى آخرها .

وانحدرنا من التلال بسرعة ، وضج العبيد سروراً لما ينتظرهم من احتمالات مفرحة ، ولاحظت أن سائقي كاد يطير بسيارته من شدة الفرح ، واغلب الظن أنه تذكر زوجته . وكانت أمامنا قطعة من الأرض القفراء ، عبرناها فوجدنا أنفسنا في خضم من البساتين معظمها من شجر النخيل ، وتقع قرب شاطىء بطينة وتمتد أميالاً عبر أراضيَ خصبة تحتوي على ملايين من الاشجار وآلاف الافدنة المزروعة ، واستطيع أن اقول بأن تلك المنطقة هي اغنى منطقة باشجار النخيل ومنتجاته في جميع ارجاء المعمورة ، وكانت الطريق بين هذه البساتين متربة جداً الى درجة أن عجلات سياراتنا كانت تغوص في التراب أحياناً ، ويصدر عنها غبار كثيف يحجب الرؤية ، وتكومت بالتالي الأتربة فوق كل ما معنا من متاع ، ومع ذلك كان في تلك الطريق شيء جميل ، هو عبارة عن بستان نخيل فسيح الأرجاء ، ولما مررنا به شاهدنا قافلة من الجمال ، تحمل تمراً وتغذ السير نحو مسقط .

وعند طرف هذا البستان ، وفي الفسحة الرملية العتيقة التي تقع بين اشجار النخيل والبحر ، تقع بلدة سوحار تحرسها قلعة تواجه المحيط ، وتلتف حولها ألوف المنازل المشيّدة من سعف النخل ، وتمتد على طول الساحل ، وكان لهذا المكان أهمية خاصة لدى السلطان ، إذ أن مؤسس أسرته الحاكمة كان يشغل منصب حاكم سوحار سنة ١٧٤٤ ، أي في الوقت الذي سادت فيه الفوضى تلك البلاد ، فقام بانقلاب اصبح بعده سيداً لمسقط وعمان (في تلك الأيام كان الحاكم يدعى — إمام عمان ، أما

السلطنة وتأسيس مسقط كعاصمة للبلاد فقد تم فيما بعد) . وعندما ترجلنا من سياراتنا عند الشاطىء ، وبعد أن نصبنا خيامنا ، حدثني السلطان قائلاً : « كانت آخر مرة زرت فيها هذا المكان في سنة ١٩٥٢ ، عندما اجتمعت القبائل هنا لتسير معي في زحفي على البريمي ، ولقد كان منظراً مثيراً وانت ترى تلك الأعداد الهائلة من رجال القبائل وجمالهم وهم يجتمعون عند الشاطىء ، وفي ذلك الوقت — كما لا بد أنك سمعت — منعني البريطانيون من الزحف على البريمي رغم أن رجال القبائل كانوا على اتم استعداد لمواجهة الموقف .. آمل ان تكون مرتاحاً يا مستر موريس ، وألا تكون الرحلة قد اتعبتك ! » .

وسمعت قصه أخرى عن تجمع القبائل في ساحل سوحار اكثر تفصيلاً من قصة السلطان وإن تكن أقل حماسة منها . وحدثني احد الدبلوماسيين البريطانيين فيما بعد ، فقال : لم يكن بوسعنا أن نسمح لهم بمهاجمة البريمي لأن الأميركيين كانوا هناك ، وكان السعوديون يستخدمون السيارات الأميركية في تنقلاتهم من الواحة وإليها ، فاذا حدث ، لو سمحنا للقبائل بشن الهجوم ، أن قتل اثناء ذلك أحد الأميركيين ، لكلفنا ذلك غالياً ، والأمر كله لا يستحق مثل هذه المغامرة » .

وسألته : « وماذا قال السلطان عندما علم بأنه لا يستطيع الهجوم ؟» .

فأجابني قائلاً : « لم اكن هنا لاسمع جوابه ، ولكنني أستطيع ان أتخيله ، ماذا تظنه قد قال ؟ إنني اعتقد بأنه لم يزد على كلمتي : « لقد فهمت ! » .

واستغرقنا في ضحك طويل .

وكان الشاطىء الذي وجدنا انفسنا عنده شاطئا جميلاً ، رماله هشة ، تكثر فيها الأصداف البحرية ، وهناك أيضاً عند ملتقى الرمال بالأرض ، نباتات دقيقة ، قيل لي إن مذاقها ليس حلواً ، ولكنها تصلح كدواء لعدة ادواء وخاصة لتقوية الباه .

وقمت بالتجول مسافات بعيدة على الشاطىء في تلك الأمسية ، ورأيت آثار الطيور البحرية على الرمال ، وكان عجيباً ان ننتقل بهذه الطريقة من صحراء وسلاسل جبال الى بحر ، يختلف بطبيعته كل الاختلاف ، وأن ندرك بأن إيران ليست بعيدة عنا عبر البحر ، وكذلك حدود الباكستان ، وكنت قبل أيام قليلة في قلب شبه الجزيرة العربية .

وعلى بعد ميل ، أو قرابة ميل ، عن الشاطىء ، مررت ببركة ماء عذب ، تغص بالأسماك الصغيرة ، وعند ضفتها رافعات كبيرة وظلال اشجار النخيل تنعكس على صفحتها ، ورأيت هناك رجلاً في منتصف العمر ، يغسل قدميه في الماء ، فجلست بجانبه محاولاً التغاضي عن رائحة الطين والطحالب التي تنبعث من البركة ، وتساءلت في قرارة نفسي قائلاً : « أي مكان هي سوحار هذه ؟ » . ولعل الرجل قرأ ما يجول في فكري ، اذ قال : « كانت سوحار بلدة كبيرة ، بل اكبر بلدة على هذا الساحل ، بلدة غنية ومنيعة ، وكانت تتمتع باستقلالها عندما احتلها « دي البوكويركو سنة ١٥٠٧ » . وأضاف الرجل وهو يفرك قدميه في أسفل ثوبه : « إن سوحار هي مسقط رأس السندباد البحري » .

وكنت قد سمعت هذا القول مراراً أثناء وجودي في مسقط وعمان ،

ولكنني لم استطع تصديق تلك الاقوال ، لان « الف ليلة وليلة » التي لها زميلات هندية وفارسية وربما يونانية ، ذكرت أن السندباد البحري رجل من بغداد ، وبدأ رحلاته المغامرة من ميناء البصرة ، وتمت كل مغامراته – كما تدل طبيعة الامور – داخل جزر . وتروي القصص أن قبطان السندباد كلما صاح قائلاً : « لقد هلكنا يا سيدي » كان السندباد يجد على الدوام جزيرة يلجأ اليها ، والاشارة الوحيدة الى الشاطىء الذي يمكن أن يكون شاطىء بطينة هي تلك التي أوردها القبطان في معرض حديثه عن « كتابه السحري » إذ قال : « إن الارض التي ترى فوق الافق عند شاطىء الملوك ، يقطنها أناس غلاظ وفظيعون » .

وكانت قيادة القوات البريطانية ، موجودة في سوحار وتحتل بيتاً ابيض اللون جميل المنظر بالقرب من الشاطىء ، وعلمت بأن أحد أفراد الاسرة الحاكمة هو الذي بناه .

وأقيم عرض عسكري أمام السلطان ، كان من الروعة والتنظيم على جانب كبير ، لا ينقصه سوى الموسيقى ، إذ ان القوات البريطانية هناك لم تكن قد شكّلت فرقة موسيقية بعد ، وأجريت مباراة في الرماية ، أعجب بها السلطان اكثر من إعجابه بالعرض العسكري ، إذ أنه ليس جندياً بطبيعته ، ولكنه ماهر في الرماية ، ويستطيع أن يصيب الهدف مهما بعد . والامر الذي يسترعي النظر في مقر القيادة البريطانية ، نظافتها وحسن ترتيبها وابوابها الحمراء الزاهية وأقفالها النحاسية .

وسعدت بالتحدث الى ضباط القوات البريطانية ، بوصفهم آخر المتطوعين البريطانيين في القوات العربية .

وكان قد مضى وقت طويل على الثورة العربية التي نجم عنها الاتصال العسكري بين بريطانيا والعرب ، فقد مضت أربعون سنة على مقتل الكابتن « شكسبير » – أحسن رجال ابن السعود من الانكليز – اثناء قتاله مع الوهابيين ضد ابن رشيد ، وكذلك فان ذكرى « لورنس » و « بورنتون » و « دوهوني » سيعفي عليها الزمن بعد قليل ، وسيخمد ضجيج السيارات المصفحة من طراز رولز رويس ، وفي الوقت ذاته ، كان الفيلق الدرزي مجرد اسطورة ، أما الفيلق العراقي فقد اختفى ، وابلغت البعثة العسكرية البريطانية في الرياض بأن خدماتها لم تعد مرغوباً بها ، وبعد ذلك بأشهر قليلة طرد « غلوب باشا » من الجيش العربي الاردني ، وأبعدت العناصر البريطانية عنه . وبات واضحاً أنه لن يمضي طويل وقت حتى لا يبقى غير أماكن قليلة في شبه الجزيرة العربية يستطيع البريطانيون ان يخدموا فيها كجنود مع العرب ، حيث يتمتعون بمباهج الحياة مع سكان الصحراء ، ومشاركتهم ما يلاقون من صعاب . وكثير ممن تبقى من المتطوعين ، كانوا ضباطاً في الجيش الهندي ، كما أن اولئك الذين كانوا يعملون مع فرقة الميدان ، قد خدموا في السابق مع فرقة مشهورة وغير نظامية تدعى « كشافة وزيرستان الجنوبية » وهناك اعتادوا على التفكير الحر ، ومعاملة ابناء القبائل على أساس أنهم مستقلون ، أما الانكليز الآخرون – شأن الكثير من الموظفين المدنيين السابقين في حكومة الهند – فلم يكونوا ناجحين في معاملتهم العرب ، فنسوا أن العرب العاديين يعتبرون كل رجل مساوياً لاخيه ، وإذا ما كلّف بعمل ، فيجب ان يكلف بمنتهى الرقة والذوق .

ويبدو أن اولئك الموظفين الانكليز كانوا يتوقعون من العرب ألا

يثيروا الكثير من الاسئلة وأن يحترموا ضباطهم الانكليز . ومع ذلك فان الضباط الانكليز الذين يعملون في جيوش السلطان الخاصة كانوا آخر من تبقى ، ممن هم على شاكلتهم ، فكانوا قادرين على التصرف بكميات الاسلحة القليلة التي تصلهم سنوياً ، في تغليم الفلاحين وابناء القبائل ، وما زالوا كذلك قادرين على تحويل تلك « المواد الخام » الى قوات مخلصة مقاتلة وشجاعة ، ولن اكتم سراً إذا قلت إنني احببتهم جميعاً .

وارتدى ضابطا القوة البريطانية – خصيصاً للعرض العسكري – بزتين كالتي يرتديها الجنود المحليون ، وثبتا على صدريهما الميداليات والاوسمة ، ودعاني أحدهما – سام براونز – لتناول الشاي في مقصف القيادة ، حيث وجدت هناك جواً مشبعاً برائحة الطباق الانكليزي ، كما وجدت علب « براسو » وويسكي وعدداً من الكلاب تستلقي على الدرج ، حتى خيّل إلي أنني ازور معرضاً بريطانياً فيا وراء البحار . وجلست على مقعد جلدي ذي ذراعين ، بانتظار تقديم الشاي ، وأحسست بالسعادة لانني تخلصت نهائياً من نزوة وجئت الى البلد الذي ولد فيه السندباد البحري ، ذلك البلد الذي تحدق به بساتين النخيل ، والذي يمتد مسافات بعيدة قرب شاطىء بطيئة على ساحل خليج عمان .

واعتذر إلي قائد الفرقة عن الشاي الذي قدمه « سام براونز » لانه خفيف ، وسألني عما إذا كنت اجرؤ على تذوق قطعة من البسكويت وقال : « لقد كانت لذيذة بالفعل ا.. » ولاحظت وجود مجلات انكليزيه وكتب عسكرية منتشرة في ارجاء الغرفة ، وكان هنالك أيضاً كلب وقطة يعيشان بسلام ، الامر الذي لا يمكن ان تجده في ابري . وإذا ألقيت نظرة عبر النافذة ، فانك سترى عبيد السلطان منهمكين في إعداد

عنزة سمينة على النار .

وأراني احد الضباط بندقية عمانية ، قديمة ورائعة ، يبلغ طولها خمسة أقدام ، وقال انه استولى عليها اثناء القتال ضد طالب ، شقيق الامام في بلدة تدعى « روستق » . وقال إن هذه البلدة كانت مسرح حرب ، ومثل هذه الاشياء تبدو فيها عادية . وعلى الرغم من أن لون البندقية قد تغير ، وعلاها الصدأ ، فانها ما زالت رائعة المنظر وهي ملقاة على « صوفا » في تلك الغرفة ، وأخبرني ذلك الضابط ان طالباً قاوم ببسالة ، وتمكن رغم حصاره من ان ينسحب . وكانت ثمة شائعة تقول بأنه غادر أراضي عمان ، على ظهر مركب ، ومن هذا الميناء بالذات ، ويُعتقد بأنه لجأ الى المملكة السعودية .. وهكذا اختفى طالب بكل بساطة وكأنه جنيّ ، ومن يدري فقد يستأنف القتال في يوم آخر . وقال ذلك الضابط : « إنه لا يسعك الا أن تشعر بالتقدير لشاب مثل طالب ، فقد أظهر بالفعل براعة نادرة في فنون القتال » .

ودرست طريق السفر من سوحار الى مسقط ، عبر البحر ، فوجدت أنها طريق سهلة ، لكن الواقع على نقيض ذلك ، اذ أن الامر يتوقف الى حد كبير على حركة المد . فاذا كانت مناسبة ، امكننا أن نسير طوال الطريق على رمال الشاطىء لمسافة مائة ميل او اكثر ، اما اذا لم يكن المد مناسباً ، فينبغي علينا والحالة هذه أن نجد طريقنا عبر ممرات لا حصر لها بين اشجار النخيل . والطريق الاولى ممتعة على عكس الطريق الاخرى ، التي لا بد وان تكون متعبة . وعلى كل حال فقد جربناهما معاً . ونصحنا الجنود البريطانيون بالانتظار حتى الظهر ، لان حركة المد ستكون مناسبة آنذاك ، ولكن السلطان كان يكره أن يضيع دقيقة

واحدة من وقته الثمين .. فقرر ان نسير مع تباشير الصباح ، وأمضينا فترة الصباح نسير بأقصى سرعة عبر بساتين النخيل ، وكانت هذه المرحلة ، اكثر مراحل رحلتنا مضايقة للنفس ، إذ ان بساتين النخيل التي كانت تبدو جميلة جداً من التلال ، والتي كنا نأمل في أن تلقي ظلالها على الطريق نوعاً من السحر ، بدت لنا مزعجة ، لان الطريق مغطاة بطبقة كثيفة من التراب ، الذي تكوّن نتيجة لمرور قوافل الجمال التي لا يحصيها عد ، ولم يكن باستطاعتنا ان نسير عليها الا مندفعين بأقصى سرعتنا ، وكانت بالتالي أعمدة الغبار ترتفع وتحجب الرؤية ، كما أنها غطتنا بطبقة من الغبار الكثيف . ولم تمر طريقنا — لحسن الحظ — طوال الرحلة بين بساتين النخيل ، بل كانت تعرج في بعض الاحيان ، لمسافة ميل او ميلين على الشاطىء ، فتدرج سياراتنا فوق الرمال الندية ، وكنا نمر في بعض الاحيان بقرية صغيرة ، فيهب سكانها لاستقبالنا ، بعد أن يكونوا قد قضوا الليل بانتظار مرور موكبنا ، وشاهدنا كذلك عدداً من الرايات الحمراء ، تخفق فوق أسطحة المنازل .

وقبل ان ينال التعب منا مناله ، انتقلنا الى الرمال ، فسرنا فوقها بسرعة ، نظراً لانها كانت قاسية ومستوية وعريضة ، مما حدا بالسائقين إلى الاندفاع باقصى سرعتهم ، وهم يغنون ، ويتسابقون ، الا انهم كانوا يراعون بقاء سياراتهم وراء سيارة السلطان ، والسيارة التي تحمل الراية الحمراء . أما العبيد الذين كانوا يركبون في المؤخرة ، فقد راحوا يتمسكون بكل ما تقع عليه أيديهم ، خوفاً على حياتهم ، ورأيت القاضي يمسك بعمامته . وفي تلك الاثناء كنا قد اجهزنا على جميع العنزات فتخلصنا من ثغائها المزعج . وكثيراً ما كان رشاش الامواج يصل الى

نوافذ سياراتنا ويغمر وجوهنا بطبقة من الماء المالح ، كما أن عجلات إحدى السيارات كانت تغوص في الرمال الناعمة . ورأيت ذات مرة سيارة تنحرف عن طريقها وتندفع بسرعة نحو البحر حتى خيّل الي أنها ستسقط ولا محالة في اليمّ ، ولكنها لم تلبث أن انحرفت فجأة محدثة رشاشاً من الماء ، بينما ارتفعت صيحات الخدم الذين كانوا في مؤخرتها .

وكنا كلما تقدمنا في طريقنا ، نكتشف ان الرمال القريبة من الشاطىء أصلح من غيرها لسير سياراتنا ، وهكذا رحنا نسير وقسم من عجلات سياراتنا غائص في مياه البحر ، الأمر الذي أفزع صغار الأسماك ، وترك وراءنا خطاً متصلاً من الزبد الأبيض ، وشاهدنا بضعة جداول تصب في البحر ، وكان علينا أن نشق طريقنا عبر مجاريها ، بعد أن نجد الأماكن الضحلة التي تستطيع سياراتنا أن تعبرها ، وكانت مجاري الجداول تحفر أخاديد عميقة في الرمال ، وقد احتجزت إحدى سياراتنا في أحد تلك الأخاديد ، وأثرت الرطوبة على محركها ، فلم يدر ، إلا بعد أن رفعها العبيد ودفعوها من الخلف . ولما كانت الشمس مشرقة طوال اليوم ، والبحر هادئاً ، فقد كان تقدمنا سريعاً ومنتظماً .

ووصلنا إلى منطقة مأهولة ، فيها قرى كثيرة ، يتعاطى أهلها صيد السمك ، وبيوت هذه القرى مبنية من سعف النخيل ، ولذا كانت تبدو كأحد المصايف في « فلوريدا » ، وكثير من سكان تلك القرى من « البلوشيين » ، أما نساؤهم فيرتدين ملابس برتقالية اللون ، وتحتها سراويل متعددة الألوان ، ورأيت الأطفال يتراكضون وراءنا على رمال الشاطىء .

وبلغنا بلدة « سيب » التي وقعت فيها تلك المعاهدة المشهورة قبل أربعين سنة ، والتي تعطي عمان للامام ، ومررنا بجزيرتين صخريتين

مهجورتين على مقربة من الشاطىء ، ثم صعدنا سفح جبل ، كنا نرى منه زرقة مياه الخليج وهي تمتد حتى تصل الى ايران ، وأخيراً تسلقنا ممراً يقع بين تلال صخرية ، فوصلنا إلى مدخل مدينة مسقط ، التي تقع بين مجموعة من التلال ، وضربنا خيامنا بين صخور بنية اللون ، وسط أرض وعرة ، ولكننا كنا نعرف بأن الميناء لا يبعد كثيراً عنا .

وكانت ثمة قرية ، بيوتها من طين ، على مقربة من مخيمنا ، وقد ازدانت بالأعلام ، وكنا نسمع عن بعد أنغام ناي ، ولعل القوم هناك كانوا يحتفلون بعودتنا .. لم لا ؟ ألم يعد السلطان إلى بلاده ؟ نعم عاد قيصر من بريطانيا .. وغداً سيدخل عاصمته في عظمة وكبرياء .

وعلى بعد بسيط ، توجد قلعة مستديرة ، تبدو كأنها مجرد دمية ، تحرس الطريق المؤدي الى العاصمة ، وتشرف على جميع المنطقة التي نخيم فيها . وقائد هذه القلعة كولونيل انكليزي من « لايم ريغز » — Lyme Rcqis — وهو يعيش هناك مع زوجته . هذا وقد نصبت مدافع القلعة بشكل تسيطر فيه على كل الاتجاهات ، وخاصة السهل ، وتوجد في ساحتها كميات هائلة من الأسلحة والذخيرة ، ويحرس مداخلها جنود يرتدون ملابس أنيقة ، وفيها ورشة خاصة بها وقاعة لاحتفالات الزواج ، وملعب لكرة القدم . والواقع أنه لم يسبق أن رأيت مثل هذه القلعة ترتيباً ومناعة ، ورغم صغرها ، فانها تحوي جميع شروط وجودها ، وفي المساء اصطحبني الكولونيل ليويني منبع « الفلوج » الذي تستقي منه القلعة مياهها ، ولما غربت الشمس ، وكنت عند فتحة تشبه فتحة البئر ، انطلقت من تلك الفتحة طيور سوداء .. لقد خرجت وطاويط القلعة لتحيي السلطان .

— ٥ —

« تحذير — إلى مسقط — استقبال السلطان — الميناءان التوأمان — الرقيق والامواض — في الليل — حفلة وداع » .

قال لي الوزير ، وهو يقود بي السيارة إلى مسقط : « هنالك شيء واحد أريد أن أحذرك منه ويتعلق بالمدينة .. يجب ألا تخرج في الليل مطلقاً دون فانوس .. إنه حكم يسري على الجميع ، وإذا قبض عليك وانت تسير ليلاً دون أن يكون معك فانوس ، فتأكد من أنك ستمضي بقية تلك الليلة في السجن » .

فسألته : « هل كان ذلك تقليداً متبعاً منذ عدة قرون ، منذ أيام عظمة مسقط ، حيث كان التجار من مختلف العواصم في العالم يؤمونها ويتجولون في شوارعها ؟ »

فرد الوزير قائلاً : « كلا على الاطلاق .. لقد بدأ العمل بهذا القانون قبل سنوات قليلة فقط ، عندما وقع بحار صيني حمار في ورطة » .

وكنا قد تركنا السلطان وراءنا يتشاور مع بعض موظفيه ، ورحنا نسير في شعب وعر باتجاه المدينة ، ورأينا جماعات صغيرة تتجمع هنا وهناك ، وازدانت الطريق بالاعلام واللافتات التي تحمل عبارات الولاء ، كما رأينا بضعة اشخاص يرقصون على قارعة الطريق ، اما القلعة والحصون التي تحرس مدخل العاصمة فكانت مغطاة بالرايات الحمراء . فجميع السكان كانوا يعرفون أن السلطان عائد إلى بلده ظافراً ، اما اولئك الذين أسقوا على مصير الامامة ، فكانوا أعجز من أن يظهروا اسفهم هذا بأي شكل من الأشكال .

وتمتد الطريق عبر منطقة وعرة ، ومن السهل أن يتحقق المرء هنا من كيفية الدفاع عن مسقط بكل سهولة (حتى قبل بناء القلعة الصغيرة ذات الوطاويط) ويذكر التاريخ وقوع عدة محاولات من قبل قبائل المناطق الداخلية لشن الحرب على حكام مسقط . وكانت هذه القبائل تنجح في بعض الأحيان في الاستيلاء على المدينة ونهبها ، ولكنها على العموم كانت تتوقف عن الزحف في هذه المنطقة الوعرة ، وفي هذه المنطقة أيضاً خاضت القوات البريطانية معركتها الحاسمة سنة ١٩١٣ ضد ثورة عمان (وكانت الحملة البريطانية الأولى على عمان قد شنت سنة ١٨٢٠ بمساعدة السلطان للقضاء على الثورة ، وانتهت بكارثة ، إذ خسر البريطانيون ستة ضباط ومائتين وسبعين جندياً واثنين وعشرين مدفعاً ، وكان لا بد من الانتقام عن طريق تجهيز حملة ثانية) . وهنا ايضاً تمكن البرتغاليون من الدفاع عن مصالحهم في وجه عدة هجمات يائسة ، قبل أن يستطيع العرب تخليص البلاد منهم وتحرير مسقط وإنهاء إشراف البرتغال على جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية ، ولما اجتاح القائد التركي المشهور « علي بك » المدينة

سنة ١٥٨١ تمكن من ذلك عن طريق مباغتة حاميتها بانزال قواته على بعد عنها على الشاطىء ، ثم قام بمهاجمة مسقط من الخلف ، مستخدماً ممراً ضيقاً لا يكاد يتسع لاكثر من رجلين . ولم يتصور احد انه سيغامر بعبور ذلك الممر ، وعلى الرغم من أن الصخور التي كانت حولنا لم تكن عالية ، الا أنها ممتنعة على الأعداء ، كما أن الطريق التي كنا نسير فيها مليئة بالقلاع والحصون ، وتشبه بذلك طريق الحدوه عبر جبال الألب .

ويطلق البحارة اليونان على مسقط اسم « الميناء المختفي » نظراً لأنه يصعب رؤيتها من البحر ، وكذلك لا يمكن رؤيتها اذا ما اقتربت منها عن طريق البر .

والغريب .. انني تعرفت على المسالك المؤدية الى المدينة ، رغم انني — كما أعلم — لم أر صورة لمدينة مسقط في حياتي . وتنحدر الطريق الى مسقط انحداراً شديداً ، وبعد أن مررنا بقرية صغيرة ومنبسط من الأرض فيه عدد من الجمال تجتر وهي تحمل أثقالها ، عبر بوابة ضخمة في سور بلدة ، وجدنا أنفسنا في العاصمة ، والحقيقة انني لم اكن متأكداً مما إذا كنا في مسقط او توأمها البحري ميناء « مطرح » المجاور لها . وعلى كل كانت السيارة تجري بنا بسرعة ، ولاحظت اثناء ذلك أن الناس الموجودين في الشارع يسرون لمرأى السيارة ، وانتقلنا من شارع الى ثان متصل بثالث وهكذا . وكان انطباعي الأول عن المدينة لا بأس به ، فبيوتها مصبوغة باللون الأبيض او مبنية بحجارة بيضاء ، حتى بدت كتلة من الصخر النظيف الأبيض ، اما التلال القاتمة ، فكانت ترتفع فوقنا وتضفي الاعلام الحمراء على المدينة جمالاً ثانياً . ولاحظت ان الناس في مسقط يرتدون ثياباً متعددة الألوان .

وما هي إلا دقائق قليلة حتى كان الباب المنقوش لمنزل الوزير ، يفتح لنا ، وشربنا هناك نخب السلطان والوزير والسنة الجديدة وحفيدة الوزير الحديثة الولادة ، فأجهزنا على زجاجة من الشمبانيا الفاخرة .

وفي الصباح التالي ، اقيمت حفلة استقبال قصيرة في قصر السلطان . وقد اقيمت الحفلة في قاعة طويلة بيضاء اللون تشرف على الميناء ، وكان اهالي مسقط يدخلون هذه القاعة فرادى وجماعات لتهنئة حاكمهم . ولاحظت أن موعد حضور السلطان قـد تأخر ساعة او ساعتين ، ولكن جموع الناس كانت بانتظاره في الشوارع مع تباشير الفجر ، حيث أخذوا يرقصون ويغنون أغاني رتيبة ، ويطلقون الهتافات والشعارات والضحكات .

وذهبت الى القصر برفقة الوزير الذي كان يرتدي عباءة سوداء طويلة ، و « بيريه » ، فبدا في ملابسه هذه أشبه ما يكون بأحد عمداء الجامعات القديمة . واستقبلنا هناك عدد من أفراد الاسرة الحاكمة ، وكانوا جميعاً سعداء يبدون لنا الود . ورأيت احدهم يحمل ثلاث كاميرات تتدلى من كتفه . واصطف حرس الشرف ، وهو من جيش السلطان الرابع ، خارج القصر ، وكانت جموع الناس غفيرة ، ولما وصل السلطان ، اندفعت الجموع الى داخل القصر في فوضى لم أر لها مثيلًا من قبل ، يتدافعون بالمناكب ، واذا سقط أحدهم على الأرض داسوه ، وكادوا يلقون بي أرضاً لولا ان اثنين من اصدقائي العبيد حملاني بين أيديهما ، تفادياً لدوسي بالاقدام ، وكنت ارى الاهالي يمرون بنا وهم يضحكون ساخرين .

وفي قاعة الاستقبال ، وجدنـا صفوف الشيوخ ، كل شيخ يهمس في اذن جاره ، ولما دخل السلطان هبوا واقفين ، وانحنينا جميـعاً انحناءة

شديدة ، وجلس السلطان على عرش متوسط العظمة ، وسرت همهمة بين الحاضرين . ولما اقدم الخدم يصبون القهوة ويوزعون الحلوى ، وجدتني الى جانب رجل مصري يضع على رأسه طربوشاً ويلبس جلباباً ابيض اللون ، فقدم نفسه إلي على انه مدير دائرة الجمارك . وقد ابلغني انني موضع ترحاب في مسقط وتمنى الا اكون قد تعبت في رحلتي مع السلطان . ولما سألته عن رأيه في النظام القائم في مصر ، اجابني قائلًا : « انني لم ازر مصر منذ مدة ، ولكنني متأكد من ان الملك فاروق لا يصلح للحكم ! » .

وسألته ما اذا كان يعتقد بأن السعوديين [illegible] بعنف على خطوة السلطان فأجابني قائلًا : « من يدري ؟ إن ذلك متوقف على الظروف ، ثم ان هذه الحلوى التي نأكلهـا .. الا تحدث عسر هضم احياناً ؟ » . وهكذا دار الحديث بيننا همساً الى ان جاء الخدم بالطيب فوضعت قليلًا منه على وجهي ، فضحك المصري وقال : « يستعمل هذا الطيب لتضميخ اللحى .. ولكنك لا تملك لحية كما ارى » .

وهكذا انتهت رحلتنا وتحقق الغرض منها ، ولم اكن لاعتبر الرحلة قد تمت ، رغم ما قطعت من اميال عديدة ، دون ان افتقد العاصمـة الاثرية التي — ربما — كنت الاوروبي الوحيد الذي يصل اليها عن طريق البر ، اذ ان كل من سبقني اليها جاءها بحراً .

وليس في مسقط قطارات ولا خطوط طيران ولا سيارات « باص » للرحلات البعيدة ، وعلمت بعـد وصولي اليهـا انه لا ينتظر وصول اية سفينة إلا بعد مـدة من الزمن ، وكأنه قدر علي ان ابقى فيهـا الى

الابد ، فلم يكن امامي الا ان ابقى ، واقوم باستكشاف المدينة التي لا يعرف العالم عنها الا القليل ، وسمحت لي السلطات بأن اذهب حيث اشاء على ان اعود لاودع السلطان الذي كان يعتزم القيام برحلة تمتد حتى الربيع ، وذكرتني تلك السلطات بضرورة عدم نسيان الفانوس ليلا !

ومسقط ومطرح تقعان جنباً الى جنب ، يحجب كل منهما عن البحر كهف من الصخور ، ولا يفصلهما عن بعضهما سوى فسحة من الارض مليئة بالتحصينات . ورأيت في هاتين البلدتين بعض السيارات ، كما ان فيهما شبكة للهاتف ومحطة لتوليد الكهرباء ، ولكنها صغيرة جدا ، وتقطن هناك جالية بريطانية صغيرة منذ سنوات ، ويمكنك ان تشتري من متاجرها آلة تصوير وغير ذلك من البضائع الاوروبية . وتمر بها باخرة مرة في الاسبوع ، وتكون اما متوجهة الى الخليج او عائدة من الهند ، وهما اكثر موانىء شبه الجزيرة العربية جمالاً ، واقلها فساداً ، وابعدها عن ضجيج التيارات السياسية ، ولم تلطخا بعد بمذورات البترول .

وترسو في المرفأ سفن قليلة ، ولكنك تسمع على الدوام دوي محركات البواخر وهي تعبر البحر ، وتشاهد خطاً من الزبد الابيض ينبعث من وراء احدى ناقلات البترول وهي تمر من نهاية المنحنى . وفي بعض الاحيان تصل سفينة نقل ، فتشاهد حولها عدداً من المراكب الصغيرة ومئات من العمال ، يفرغون حمولتها من البضائع ، وينقلونها الى الشاطىء في « مطرح » .

ومطرح هي العاصمة التجارية للبلاد ، حيث يقطن المستوردون الهنود في

بيوتهم الصغيرة الجميلة ، والقريبة من البحر . ويجد المرء سوقها الكبيرة ، مكدسة بمختلف انواع البضائع . ومن مطرح تنطلق قوافل الجمال الى الجبال ، وفيها تخزن البضائع في مستودعات أثرية ، ويتولى صديقي المصري صاحب الطربوش تدقيق قوائمها . وسوق البلدة مظلمة لأنها مسقوفة بسعف النخل ، ومتاجرها لها واجهات مفتوحة ، ولا نوافذ لها ، وهي على الدوام مكتظة بالمشترين .

وذهبت لأشتري « صندلاً » فمررت بجماعة من البدو ، ممن رافقونا في رحلتنا الى الداخل ، وقد تطوعوا جميعاً لمساعدتي في انتقاء ما أريد ، كيلا يغشني ، البائع والبائعون دائماً يعتقدون بأنني سهل المنال . وبينما تعتبر مسقط مقراً للحاكم والقناصل العامين والوزير ومركزاً للمدفعية ، فان مطرح تعتبر المكان الذي يستطيع فيه المرء أن يجمع ثروة ، فهي بلدة يؤمها اصحاب الابل ، فيقضون فيها ليلة او ليلتين قبل أن يعودوا الى الجبال ، ويتسكع البحارة العرب بقواربهم في خليجها .

ومشيت ذات صباح على شاطىء مطرح لأراقب صيادي الأسماك وهم يبيعون صيدهم ، وكانت ثمة سيارة أثرية تذهب وتجيء على الشاطىء ، محدثة ضجيجاً مزعجاً ، غير ان جموع الناس لم تأبه لها ، وكأن ضجيجها غدا شيئاً مألوفاً لديهم . وكانت هنالك امرأة من « البالوشي » تساوم أحد الصيادين ، فلا يقبل بما تدفعه من سعر ، وتقع بين الاثنين مشادة كلامية لها أول ، لكن ليس لها آخر . ورأيت هناك كثيراً من الأطفال يلعبون على الرمال ، ويجمعون الأصداف وكلاب البحر ، وهو نوع من السمك يقدره أهل مسقط كثيراً ، وهم يأكلون القسم الجاف منه فقط ، ويرسلون حسكه إلى الصين ، وشاهدت انواعاً غريبة من السمك ، كان

أغربها ذلك النوع الذي يشبه السيف .

والشاطىء الجميل مزدحم بالبيوت التي تمتد مع امتداده ، وبعض هذه البيوت جميلة ولها شرفات ونوافذ ، وبعضها كبير ومكين الأساس . ورأيت قوساً يفضي الى ساحة ، والناس تدخل وتخرج منه بكل حرية ، ولكنني ما ان اقتربت منه وهممت بالدخول ، حتى امسك بي رجلان ، وافهماني بأن المكان مخصص للحريم . وقدّرت أنه لا بد وأن يكون غاصاً بالزوجات ، وسألتهما : « هل استطيع ان ألقي نظرة الى الداخل من زاوية البوابة ؟ » . فأجاباني بالنفي ، ولكنهما سمحا لي بالقاء نظرة على الساحة ، شريطة ألا امد رأسي الى الداخل . ولم أر حوريات كما كنت اتوقع ، بل كان من رأيتهن ثلاث او اربع نساء محجبات ، اعتقد بأنهن كن يغسلن ثيابهن .

ونظام الحريم ما يزال موجوداً في مسقط . والحريم هناك مجتمعاتهن الخاصة وأماكن لهوهن ، وتفرض الحراسة على هذه الأماكن لمنع تسلل المتطفلين . وقيل لي إن ام السلطان نفسها سجينة بيتها . واستطيع ان اقول بأن عدداً قليلاً من النساء قد رأين مسقط ، واثناء الظلام ، وهن يحملن فوانيسهن ، فيما يكن ذاهبات من مكان الى آخر .

وسألت ذات يوم رجلاً يبيع امشاطاً : « هل يوجد هنا عبيد ؟ » فرد بالنفي ، والحقيقة ان مسقط خالية من العبيد ، وربما كانت تجارة العبيد منتهية في الميناءين التوأمين ، رغم ان معظم سكانها من الزنوج وينحدرون من آباء كانوا عبيداً فحرروا ، والطريف ان العبيد ، أيام

كانت بريطانيا وفرنسا تكافحان تجارة الرقيق في منطقة الخليج ، يدعون انفسهم بريطانيين او فرنسيين ، وفقاً للدولة التي تحررهم ، ويبالغون في ذلك ، الى درجة انهم يحتفلون بالأعياد الوطنية للبلد الذي ينتسبون اليه . ولما اصبحت بريطانيا هي المسيطرة على منطقة الخليج ، كان هنالك ممثل بريطاني سياسي لا غير (اغلقت القنصلية الاميركية سنة ١٩١٥) وظل القنصل العام يطالب بتحرير العبيد الذين يهربون من اسيادهم في المناطق الداخلية ، ويحضرون الى مسقط ، ثم يلجأون الى القنصلية البريطانية . وقد راقبت باب القنصلية مدة ايام عساني ارى « الدراما » تمثل اثناء وصول بعض العبيد الآبقين ، ولكنني لم ار احداً .

ويقال ان الرق — ما يزال موجوداً في انحاء اخرى من شبه الجزيرة العربية . وقد حاولت الولايات المتحدة في وقت لاحق ، ان تمنع تجارة الرقيق في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر ، تلك التجارة ، التي كانت تؤمن اعداداً كبيرة من الزنوج الى من يريد شراء العبيد .

ومن المؤكد ان السلطان كان يحتفظ بعبيده الخصوصيين في ظفار وقد رافقنا بعضهم في رحلتنا الى عمان ، غير انه كان يتظاهر بالعطف عليهم ، ويعارض معاملتهم بالعنف والقسوة ، ذلك التظاهر الذي جعله مكروهاً من تجار العبيد في شبه الجزيرة ، لانه يشجع العبيد على التمرد .

وبقدر ما هي تجارة العبيد شريرة ، فان انتشار الامراض شر منها . وهناك على بعد يسير من الشاطىء يوجد مستشفى البعثة الاميركية في مطرح ، يحج اليه المرضى سيرا على الاقدام من مسافات تبلغ مئات الاميال

ليتلقوا العـــلاج فيه . وغرف المستشفى مكتظة بالفقراء من المرضى ، وهؤلاء يحاولون ان يجعلوا المستشفى بمثابة منازل لهم ، والعادة هناك انه اذا مرض شخص ما ، فانه يحضر معه زوجته واطفاله الى المستشفى ، فتقوم الزوجة بغسل الثياب وطهو الطعام ، بالاضافة الى البكاء والعويل الى جانب المريض . وكان رئيس هذه البعثة قد زار المناطق الداخلية قبل بضع سنوات ليعالج الامام – سلف الامـــام غالب – واستطاع عن طريق انتباهه والتقاط العديد من الصور ، ان يعود وهو اعرف رجل بأحوال تلك المنطقة . وفي سنة ١٩٥٥ غادر هذا الرجل مسقط . وسمعت عنه اشياء كثيرة ، منها انه توجه الى المناطق الداخلية مندوباً عن شركة البترول الاميركية في المملكة العربية السعودية ، وعقب احدهم على هذه الشائعة بقوله : « تماماً مثلك انت .. اذ من المستحيل ان اصدق بأنك قمت بهذه الرحلة مع السلطان لمجرد ان تؤلف كتاباً عنها ! »

والمستشفى عبارة عن بناء كبير من الطوب ، يقع على ارض قريبة من التلال ، وهو مزود بالمعدات الحديثة ، ويشرف عليه عـــدد من الاطباء الاميركيين المخلصين . وقد اصطحبوني ذات يوم لأرى « مستعمرتهم » حيث تقطن الجالية الاميركية ، ويعيش رجالها ونساؤها بسعادة ، بل لقد خيل الي انهم يستمتعون بأسعد ايام عرفوها منذ سنوات طوال . واطباء المستشفى يبتسمون باستمرار ، ولا يتورعون عن مصافحة مرضاهم ، ولكنهم كانوا يحرصون بعد ذلك على غسل ايديهم بالمواد المطهرة . والواقع ان المستشفى كما رأيته ، كان تجربة تستحق ان تحتذى . ويضم المستشفى مصابين بمرض « التراخوما » ، وهو مرض منتشر في شبه الجزيرة العربية ، تنقلب فيه الجفون الى الداخل ، وتحك البؤبؤين ، محدثة آلاماً لا تطاق .

ويمكن الشفاء من هذا المرض ، اذا عولج في اول اصابة المرء به ، ولكنك لن تجد طبيباً واحداً خارج بلدة مسقط ، ولذلك فالمرء يشاهد باستمرار اناساً مصابين بأمراض العين ، تهطل دموعهم باستمرار بتأثير « التراخوما » . وحدثني احد الاطباء الاميركيين فقال : « إننا قادرون على استئصال شأفة هذا المرض ، لو توفر لنا المال اللازم » ألم ينقطع مرض الجذام من انكلترا ؟ فاذا تمكنا من عزل جميع المصابين ومعالجة كل اولئك الفقراء الذين يصابون بـ « التراخوما » منذ البداية ، فمن الجائز ان نتمكن من القضاء على هذا المرض .. ولكن الامر بطبيعة الحال ، يحتاج الى نقود ! »

فقلت له : « ربما تعني نقود البترول ! »

فهز كتفيه وابتسم وقال : « اية اموال تفي بالغرض ! »

واطلقت المدافع من قرية « موراني » ، وكان الوقت الثامنة مساءً ، فاغلقت على الاثر بوابات مسقط ، فأصبحت تماماً كأحدى مدن اوروبا في القرون الوسطى ، واخلدت العاصمة للهدوء ، ولم يعد أحد يستطيع مغادرتها او الدخول اليها ، وسلمني خادم الوزير فانوساً بينما كنت اهم بمغادرة البيت لاتجول في انحاء المدينة ، وسألني عما اذا كنت بحاجة اليه ليرافقني ، فشكرته واكدت له بأنني سأكون في امان . ومع ذلك تبعني لمدة نصف ساعة ، وكنت ألمح انوار فانوسه على بعد مني ، يقف عندما أقف ويسير عندما استأنف السير ، ولم يتركني حتى تأكد من انني لن اقع فريسة للصوص . والحق يقال ان اهالي مسقط قوم لطفاء وكثيراً ما يقدمون للغريب خدمات جلى في شتى الميادين .

وذهبت الى القلعة وكانت مطفأة الانوار تماما ، ثم عدت الى المرسى ، وبقيت هناك وحيداً ، وقد رأيت انواراً قليلة تنبعث من وراء نوافذ البيوت الواقعة في القسم الاعلى ، ورأيت كذلك انواراً تشع من محطة توليد الكهرباء ، وخيل الي وانا في مكاني ذاك ان كل ما شاهدته في رحلتي ، من شيوخ ومدافع وبنادق وحيوانات وآبار نفط ، ليست الا حلماً عفى عليه الزمن ، وحانت مني التفاتة الى قصر السلطان فلم ار نوراً فيه فأدركت بأنه قد آوى الى فراشه .

وقبل ان اتوجه لوداع السلطان في صباح اليوم التالي ، استمعت الى الاخبار عن طريق الراديو ، لأعلم رد الفعل العالمي لاحتلال عمان ، فتبين لي ان العالم لم يقرأ سوى جملتين اثنتين عن مغامرتنا ، عرف عن طريقهما ان الامام لجأ الى حرب الأنصار بعد ان احتلت قوات « السلطان » بلاده ، وقد حشرت هاتان الجملتان بين فيض من الانباء عن مؤتمر نزع السلاح ونتائج مباريات كرة القدم . وانني لاذكر ان السلطان سألني ذات يوم ونحن في سلالا عما اعرفه عن جنوب شرقي شبه الجزيرة العربية ، وكنت في الحقيقة غير مطلع على شيء ، شأني في ذلك شأن بقية العالم .

ولما ارتقيت برفقة الوزير درج قصر السلطان ، وجدناه في قاعة العرش ، راضي البال قرير العين ، لم لا ؟.. ألم يكتب صفحة جديدة في تاريخ مسقط ؟ انها المرة الاولى في التاريخ التي يحكم فيها سلطان مسقط المناطق الداخلية في عمان .. وشكراً لبريطانيا !.. وانحنى الوزير امام السلطان ، وحذوت حذوه ، وجلسنا في مقعدين مزركشين ، وضعا امام السلطان ، وكأنه كان يريد ان يقرأ ما في أعيننا . وشكرته لانه سمح لي بالقيام بالرحلة برفقته فقال انه كان سعيداً جداً لانني حضرت معه ، وانه سينتظر

صدور كتابي ليقرأ ما كتبته عن بلاده . وسألني عما اذا كنت عوملت معاملة حسنة اثناء الرحلة ، وما اذا كان الخدم قد اعتنوا بي ، وهل كانت الطريق متعبة ، وهل كانت الخيمة مريحة ، فقلت له ان كل شيء كان على ما يرام .

وشربنا القهوة ، وتحدثنا في الامور السياسية قليلاً ، ولكنني لم اشعر براحة وانا اتحدث الى هذا الحاكم ، رغم انه كان صديقاً حميماً لنا . وسيظل سعيد بن تيمور ، بالنسبة لي ، ذلك السلطان المحب للرحلات وركوب البحار والمغامرات ، وسأذكره دائماً وهو جالس في سيارته ونظارة الشمس متربعة على ارنبة انفه ، يفحص الخارطة ليعرف المسافة بين المكان الذي هو فيه والمكان الذي يقصده ، والرجل الحريص على ان يحمل ميزان الحرارة معه اينما ذهب ، ويصر على ان ترفرف الراية الحمراء أمام سيارته .

ومن خلال نافذة القاعة ، رأيت المرسى ، حيث كانت تقف السفينة البيضاء التي كان مقرراً ان تقلني الى الخليج ، وبعد ان تناولنا القهوة ، وتضمخنا بالطيب ، صافحنا السلطان وأنحنينا امامه مرة اخرى ، ثم انسحبنا الى الخارج . وبينما كنا نسير الهوينا في شوارع البلدة قال لي الوزير :

— « هنالك شيء اود ان احدثك به حول هذه المقابلة .. طبعاً اذا لم يكن لديك مانع ، وانني لمتأكد من انك لن تغضب .. فاذا تحدثت مع مثل هؤلاء الحكام فانه من غير اللائق ان تجلس متربعاً ، كما كنت تجلس .. وطبيعي ان الامر ليس مهماً .. ولكن عندما يجلس المرء بتلك

الطريقة فان نعل حذائه يكون في وجه السلطان ، فاذا فهمتني ، فانني اعتقد بأنك لن تكرر هذا العمل ابداً .. ولكنك لم تكن تعرف مثل هذه الامور ، ولا اعتقد بأنها خطرت لك ببال » .

وتطلعت الى القصر المربع الجميل والحارس يخطو امامه ، والمدفعان ينتصبان الى جوار سوره .. كان كل شيء اثرياً ، فقلت وانا اصعد الى سيارة الوزير : « لقد فهمت ! »

الخاتمة

« الكوم السخي — الى البحر — القومية العربية — عملات مختلفة — لا .. لا يا سيدي ! » .

كانت الممتلكات الوحيدة الباقية لمسقط فيما وراء البحار ، ميناء « غواندار » — Gwandar — على شاطىء الباكستان ، فكأن ذلك الميناء قطعة أرض مسوّرة ضمن ممتلكات الغير . وأول رجل قابلته عندما صعدت الى ظهر السفينة كان الرجل الانكليزي الذي عينه السلطان لادارة المستعمرة النائية ، وعلمت منه بأنه الأوربي الوحيد في غواندار وانه جاء لتمضية اجازة قصيرة في مسقط التي تشبه ، بالنسبة لمكان إقامته ، « برودواي » . ولاحظت أن ضباط السفينة يعرفونه معرفة جيدة ، إذ إنهم عندما يعرجون على غواندار يزورهم ويتناول معهم وجبة طعام ، وكانوا يحضرون له الصحف والمؤن ليخففوا عنه اعباء عزلته . وحدثني بعض الانكليز عنه فقالوا إنه رجل معتد بنفسه كثيراً ويحب العزلة

والابتعاد عن الناس . ومع ذلك فقد كان شخصا محبوباً ، واعتقد بانه خدم في البوليس الهندي ، ولعله تأثر بتلك الخدمة ، فأخذ ينظر الى العالم نظرة الفقير الهندي اليه .

ووصف لي حياته في غواندار التي تبدو على الخارطة منطقة حارة ومعزولة وموحشة بشكل لا يتصوره المرء ، وأذكر انني اعربت لذلك الفيلسوف الاداري عن وجهة نظري في غواندار فابتسم وقال : « انني اضحك دائماً عندما اسمع الناس يتحدثون عن غواندار بمثل هذا الكلام .. هلا فكرت بأنه يوجد هناك عشرون الف شخص يقطنون غواندار ، مثلي ؟ » .

وفكرت فيما قاله فترة من الزمن ، وحاولت ان اجد مبرراً لموقفه هذا ، ولن اتجنى على الحقيقة فاقول إنني اعتقدت بأن سكان غواندار بشر مثل ذلك الاداري ومثلي ، وقدرت انني لو عينت في غواندار ، ومهما كنت أجيد لغة اهلها ، ومهما كنت مهتماً بمصالحها او بتتبع آثار الثقافة القديمة ، فانني سأظل افكر في نفسي على اعتبار انني من البشر ، وكنت أحب زيارة البلدان العربية ومقابلة المسؤولين العرب والكتابة عن الجيوش العربية ، ومصانع الفولاذ ، والمشاعر الثائرة في تلك البلاد ، غير أن شيئاً عميق الجذور من الفطرة الامبراطورية ، كان يحتدم في نفسي . ولست أشك في ان هذه الفطرة لا تخلو من عناصر ضارة بالنسبة لبلادى بريطانيا ، فقد كنا نحن الانكليز نتمتع بامتيازات لم تتح لغيرنا في تلك المناطق ، ولكننا لم نستفد من هذه الامتيازات .

ولما لوحت بيدي ، مودعاً ذلك الاداري ، وجدتني اقف على حاجز

السفينة اتطلع الى الشاطىء العربي ، كان اليوم جميلا والشمس مشرقة ، وقدرت بأنه يصلح للعبة الكريكيت او التزلج على الماء ، وبدا لي الشاطىء كقطعة نحاس تافهة في متحف الآثار القديمة للاستعمار .

وكانت مغامرتنا في عمان تعبيراً عن فطرة مماثلة ، وكان السلطان هو قائدنا ، ولكن المسؤولية التامة في القضاء على حكم الامام ترجع الى المسؤولين في وزارة الخارجية البريطانية الذين بذلوا كل ما لديهم من نفوذ وقوة في هذه المنطقة من العالم العربي لتحقيق خلع الامام ، فهل تملك الحق في ذلك ؟.. وتساءلت أيجوز لنا ان نتدخل في الشؤون العربية الخاصة ؟ او ان نفرض وجهات نظرنا في معاهدات مبتذلة ومواثيق غير متكافئة ؟ ان العالم العربي كله كثير الطموح ، وتواق الى الاتحاد ، وتحقيق الاستقلال الناجز ، فهل من الصواب في مثل هذا الوقت الاقدام على ما أقدمنا عليه ، ولو على حساب كرامة بلدنا ، وتحقيقاً لأطماع امبراطورية تسعى للحصول على الثروة بأي شكل ، حتى ولو زعزعت مركزها في شبه الجزيرة العربية ؟

وانتهزت القاهرة الفرصة فاذاعت حديثاً موجهاً لمستمعيها في عمان قالت فيه : ان العدو قد هاجمكم بقواته المسلحة ودباباته ومصفحاته وطياراته فاكثر كل العهود والوعود ، وخارقاً كل قوانين الله والبشر ، إن المستعمرين يحاولون تجميد القسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية ، بعد أن هزموا في القسمين الشرقي والغربي ، إنهم يحاولون اعادة قصة المستعمرين البرتغاليين الذين حطم الشعب العماني محاولاتهم ، يا ابطال عمان ، فكروا في سياسة الاستعمار ذات الوجهين ، ان عملاء الاستعمار قد اعلنوا انهم لن يمسوا استقلالكم ، ولكن الحقيقة انهم احاطوكم بسياج من حديد ونار

وشنوا عليكم هجمات ضارية بقوات عديدة .

وأذاع راديو دمشق في تعليق له على أحداث عمان : « ان مثل هذه الاحداث قد اثبتت سوء نيات المستعمرين في عمان ، ثم ان احتلال البريمي من قبل الانكليز ، انما يهدف الى فصل عمان عن العالم العربي . إن عمان بلد حر ومستقل ، وما سلطان مسقط سوى تابع لامام عمان ، ولكنه ثار على الامام وتحالف مع الاستعمار البريطاني ، وهو لا يملك اي حق في واحة البريمي ، فيا ايها العرب ، ساعدوا اخوانكم في عمان على صون استقلالهم » .

والحق يقال انني كلما فكرت في هذه الأقوال وجدت انها لا تخلو من الصواب ، ومن المؤكد أنني لم اكن مقتنعاً بشرعية العمل الذي قمنا نحن الانكليز به ! وعلى الاقل من حيث حق السلطان في خلع الامام ، لاسيما وأنه لا مصالح له في المناطق الداخلية ، كما اني مقتنع بأن السعوديين على حق بمطالبتهم بواحة البريمي . وقد يعتقد البسطاء بأن من حق السلطان الوراثي الاشراف على عمان ، في الوقت الذي يعرف فيه كل انسان ان البترول هو السبب الوحيد لكل ما حصل . وقد يعتقد بعضهم بأنه من غير الانصاف اقحام القوات البريطانية في الحادث ، والواقع الذي لا مراء فيه ، هو أن وجهة نظر بريطانيا في الحادث ، كانت متسمة بطابع ، هو أقرب ما يكون بتفكير الاطفال وسذاجتهم ، ولكن تفكير المستعمرين كان يطل على نافذة أخرى ، فهم يعتبرون وجود بريطانيا في منطقة الخليج العربي ، حامياً لاماراته ومشيخاته ، وحائلاً دون ايران من احتلال البحرين ، وابي ظبي من احتلال الشارجة ، والشارجة من احتلال ابي ظبي ، والسعودية من احتلال عمان ، ومانعاً في الدرجة الاولى للاتحاد

السوفييتي من احتلال الجميع . وكانوا يقدّرون انه كلما كنا اقوى واغنى ، استطعنا توفير الاستقرار ، ولكن من يدري ؟ فقد يتأخر الانفجار مدة عقد او عقدين من الزمن ، ولست هنا لأقول ان مغامرتنا في عمان قد ساهمت في احياء النهضة العربية ، وساعدت كثيراً قضية التقدميين العرب الذين اعطف كثيراً على اهدافهم ، ومن الجائز كذلك ان تكون هذه المغامرة ، قد ساعدت على تدعيم اقتصاديات بريطانيا لمدة عقد او عقدين . ويخشى الذين يأخذون علينا ما قمنا به في عمان ، ان يؤدي ذلك الى تخليه نفوذ بريطانيا في جنوبي شرقي آسيا ، ولكن هل هذا صحيح ؟.

ونظراً لوجود السخط على السياسة البريطانية ، وخاصة في منطقة الشرق الأوسط ، فان خصوم بريطانيا ، استغلوا الفرصة ، فهل كان ما قامت به بريطانيا في عمان عملاً شرعياً ؟ وهل يساعد ذلك العمل العرب ؟ وهل لا يرضي أحداً ؟ وهل يرضي بعض الناس ؟ وماذا ترى ستقول المعارضة ؟ ان مخططي السياسة الانكليزية نسوا عندما رسموا خطتهم في عمان الاجابة على هذه الاسئلة ، واعتبروا أنفسهم الوحيدين الذين يحق لهم الاجابة على هذه الاسئلة ، فهل كانوا على حق ؟

كنت احمل معي مجموعة غريبة من العملات ، روبيات هندية ، دولارات ، ماريا تريزا ، وبالات ايرانية ، دنانير عراقية ، وبنكنوت من مصر وسوريا والاردن ولبنان ، وكلها عملات تختلف بعضها عن بعض وتثير في نفسي الحيرة ، وكذلك كنت احمل دفتر شيكات بمبالغ من الدولارات الأميركية ، وعلى كل شيك صورة « لجسر البوابة الذهبية » وهي مصنوعة من ورق ثقيل ، وقد أعتني كثيراً في نقشها . وهكذا ذهبت

مسلحاً بما أحمله من حملات رائعة لادفع ثمن تذكرتي الى امين حسابات السفينة .

ولكن الرجل الطيب ، القى نظرة شكٍ على شيكاتي ، وارتسمت على وجهه إمارات الحيرة ، وامسك بالشيك بين اصابعه ، وفحص قيمته بدقة ، ثم رفعه ليفحص العلامة السرية ، ووضع نظارتيه وأعاد فحصه مرة أخرى ، وقلّبه مره او مرتين ، وفحص أرقامه فحصاً دقيقاً ، ونزع نظارتيه ، ثم أعاد الي الشيك وقال بصوت فيه لهجة أهل « يوركشير » : « أوه .. كلا ، كلا .. يا سيدي .. إننا نفضل في سفن هذا الخط الملاحي الجنيهات الاسترلينية .

وتساءلت في قرارة نفسي ، أليس صاحبي هذا يمثل حق السياسة الاستعمارية أصدق تمثيل ؟ .

اكتشاف جزيرة العرب

خمسة قرون من المغامرة والعلم

تأليف : جاكلين بيرين

نقله الى العربية : قدري قلعجي

الرحالة الغربيون الذين حاولوا اكتشاف جزيرة العرب خلال القرون الخمسة الأخيرة ، جمعتهم البحاثة الفرنسية جاكلين بيرين بين دفتي هذا الكتاب الرائع ، لتروي قصصهم الشيقة ، وتسجل ما قدموه من خدمات في حقل المعرفة البشرية ، واكتشاف المناطق المجهولة والأقوام التي تقطنها ، متنقلة معهم في المكان والزمان ، مبينة الدوافع الحقيقية لرحلاتهم ، والنتائج العملية التي أفضت اليها ، دون ان تتردد في هتك الستار عن كذب المفترين وخداع الدجالين ، أو في الانحناء أمام الرواد الصادقين الذين تكبدوا المشقات وجابهوا الأخطار في سبيل رسالتهم العلمية النبيلة .

وقد جاء هذا السفر الممتع مرجعاً فريداً في الجغرافية البشرية لسائر أنحاء الجزيرة العربية ، في بقاع ما تزال مجهولة حتى لدى الباحثين العرب .

ويزيد في قيمة الكتاب المقدمة القيمة التي وضعها الترجمة العربية العلامة الشيخ حمد الجاسر ، ومساهمته في ضبط أعلامه وكتابة هوامشه .

الثمن : ٦٥٠ ق. ل.

دار الكاتب العربي

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت - بناية عمر الخيام - ص.ب ٣١٥٧

هاتف ٢٩١١١٨ - ٢٤٠٥٠٦ - ٢٤٠٥٠٧

من منشوراتها :

		ق. ل.
الفنون الادبية وأعلامها في النهضة العربية الحديثة	لأنيس المقدسي	١٠٠٠
الكويت كانت منزلي	لزهرة ديكسون فريث	٤٠٠
المعارك الفاصلة في التاريخ	لحنا خباز	٣٥٠
تمثيليات كليلة ودمنة	لابراهيم عز الدين اسماعيل	٢٠٠
رائد الثقافة العامة	لبير شبوغ	٧٥٠
ادباء السجون	لعبد العزيز الحلفي	٣٧٥
اشهر ملكات التاريخ	لليديا فارمر	٣٠٠
اضواء على تاريخ الكويت	لقدري قلعجي	٥٠٠
في مواكب النور	لأنيس المقدسي	٥٤٠
سجناء الرون	لخضر نبوّه	١٥٠
الابطال	لتوماس كارليل	٤٥٠
مشاهير رجال العلم	لبولتون	٥٠٠
شاعر في المعركة	لرفائيل ساباتيني	٣٠٠
جمهورية افلاطون	ترجمة حنا خباز	٦٠٠
المعتمد بن عباد	لنديم المرعشلي	٢٠٠

ذاكرة عمان

هذا الكتاب

بالحديد والنار ، وبالطاقات المادية الهائلة ، استطاع الانكليز في مسقط بارادة صنيعتهم السلطان الدمية — سعيد بن تيمور — أن ينشبوا أظفارهم ويعملوا أنيابهم بعمان الباسلة ، ويجوسوا سفوح الجبل الأخضر ، ويستلبوا قلب البريمي من أيدي أصحابها الشرعيين .

وتحرك السلطان الدمية ليزور أرجاء « ملكه » الذي فتحه بحراب المستعمرين ، وكان معه الكاتب المؤلف فما شهد وماذا شاهد ؟

« ... أقيم عرض عسكري أمام السلطان ، كان من الروعة والتنظيم على جانب كبير ، لا ينقصه سوى الموسيقى لأن القوات البريطانية هناك لم تكن قد شكلت فرقة موسيقية بعد .. »

ويتابع المؤلف رحلته فلا يشاهد أثراً للمعارك التي يخوضها الوطنيون ممن توزعتهم شعاب الجبـــل الاخضر مكافحين مناضلين يجبهون الاستعمار بنفوس صلبة عنيدة ، شديدة ، عاشت لمثل الحياة الحرة العزيزة السعيدة ، وأنما يحس بالدفاع السلبي الذي يعيشه هذا الشعب المكافح ، وان السلطان قد احتبس نفسه في ايدي مسترقي شعبه .

ولا يستطيع القارىء ، وهو يطبق هذا الكتاب غير ان يهتف : نعم ذاك سلطان ، ولكنه صنع في انكلترا ...

الثمن ٥ ل.ل. او ما يعادلها